سعاد الراعي

خلع الخاتم

رواية

خاتم

الخاتم

سعاد الراعي

خلع الخاتم

ـ رواية ـــــــ

Title:
taking off the Ring

العنوان:
خلع الخاتم

Author:
Suad Alraee

تأليف:
سعاد الراعي

All Right reserved

جميع الحقوق محفوظة

Cover design:
Tarik AL- Hilfi

تصميم الغلاف:
طارق الحلفي

First Edition 2025

الطبعة الأولى 2025

Aris/ Germany

دار آريس/ المانيا

This book was printed in
Backnang Press / Germany

تمت طباعة هذا الكتاب في مطبعة
باكنانغ / المانيا

ISBN:

رقم الإيداع/ الترقيم الدولي:

"978-3-9825711-2-6"

"978-3-9825711-2-6"

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means.
without the prior written permission of the author.

الإهداء

إلى الأصوات التي لم تخشَ الارتجاف وهي تعلو في وجه التطرف والتمييز والكراهية،

إلى القلوب التي تنزف بصمت تحت وطأة طغيان الطائفية،

إلى الأرواح البريئة التي سُفك دمها قربانًا لجنون العنف الطائفي،

هذه الصفحات وُلدت من وجعكم، وتنحني إجلالًا لتضحياتكم، علَّ الحكاية تكون صدى لآهاتكم ونورًا في دروبٍ أنهكها الظلام

سعاد الراعي
درسدن/ المانيا

20.09.09

المقدمة

تستوعب رواية (خلع الخاتم) للكاتبة السيدة سعاد الراعي حدثا مهما وحساسا عانى منه المجتمع العراقي، بكلّ أشكال المعاناة وقسوتها من قتل وتشريد وتشتت ألا هو موضوع الطائفيّة الذي استهلك المجتمع العراقي بعد سقوط الدولة عام 2003 ولا زلنا نعاني من تبعاته حتى اليوم.. وحين أطلقتُ صفة رواية على (خلع الخاتم) مع كونها أكثر من 10000 آلاف كلمة فإنّ لي وجهة نظر في مفهوم الرواية على وفق عدد حروفها، فالرواية حسب وجهة نظري هي ما تعالج حالة مجتمع ما ضمن إطار زمني طويل بغض النظر عن عدد كلماتها، فإذا ما جاءت بحدود 4000 - 6000 كلمة فهي رواية جيب، وإذا ما جاءت بحدود 8000 كلمة وأكثر فهي رواية قصيرة*.
لذلك أطلقت على (خلع الخاتم) رواية، وقد توفّر فيها أكثر من عنصر لجعلها رواية:

---

* **الحدّ الأدنى للرواية على الأرجح 50000 وبعضهم يرى 80000 كلمة وهذا الحكم أوروبيّ بحت لكنّ عصرنا عصر سرعة ويمكن لعمل سردي أن يعبر عن مرحلة ما بعدد أقلّ من الكلمات.**

أوّلا تتحدث عن مجموعة من أفراد المجتمع العراقي ينتمون لفئتين كبيرتين حسب مفهوم فقهي قديم (سنة، شيعة)
ثانيا: الزمن هو زمن رواية بطوله الممتدّ من انفجار الأحداث إلى وصول البطلة إلى بر الأمان وليس زمن قصة قصيرة أو قصّة طويلة.
ثالثا: هناك أكثر من شخص: البطلة، طفلتاها، المرأة المساعدة. أخ الزوج.. المهرّب.. الأهل.. الأخ...
رابعا: استندت الكاتبة في تناولها الأحداث إلى أسلوب السرد الروائي.
من هذا المنطلق صنّفتُ عمل السيدة سعاد الراعي ضمن الرواية القصيرة ولم أقل إنّها قصة طويلة.
لقد زاوجت الكاتبة في روايتها بين الأسلوب الواقعي، وأسلوب الواقعيّة المستنيرة الذي كتبت فيه عددا من الروايات.* إنّ الموضوع الذي اختارته الكاتبة هو زمن بداية العنف حين انفجر بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، القتال بين السنة والشيعة وقضيّة الانتقام إذ يمكن أن نشبّه المجتمع العراقي بمكوناته الدينية والقومية بقوس قزح: أيّ تجاوز على أيّ لون يلغي القوس كلّه.
هذه النقطة الحساسة أضفت على الرواية بعدا نفسيّا تمثّل في موهبة الكاتبة وطريقتها في المزج بين الواقعية والواقعية المستنيرة إذ صورت بقلمها المحيط الخارجي بدقة متناهية مثلما تفعل لا لكي تصف فقط

إنّما لترسم مثلما يفعل المصور بعدا مثيرا لحالة البطلة الضحية وعبر الوصف الواقعي نقلت إلينا نفسية الضحية والجزّار بل هي نفسية مجتمع هائج مثل الثور لكنه ثور لا يقتل المصارع الذي أدماه بل يقتل نفسه:
لقطة من هياج المنتقمين:

"غير أنّ الكلمات تأخرت، والأيدي سبقتها بعنف صاعق. انهمرت اللطمات والركلات على وجهها كالمطر الأسود، وانغرست قبضاتهم في جسدها الضعيف، بينما كانت صغيرتاها تصرخان في هلعٍ يضاعف عجزها. تحوّلت اللحظة إلى دوامة من الألم والضجيج، والبيت إلى ساحة حرب بلا رحمة."(ص 2)

اللقطة أعلاه وصف دقيق للعنف المتمثل بهياج المجموع أو العقل الجمعي الذي يسيره العنف لا الفكر والتأمل، لقد استوعب الوصف في الرواية منذ البدء العنف لانّ الخارج تسوده روح الانتقام ولا أحد يفكّر بعقله، يقابل ذلك وصف داخلي، وصف لحالة الضحيّة التي تتحدث عن مشاعرها، هواجسها داخل إطار الرعب:
كانوا يريدون غسل دمه بدمها، تحويلها إلى شاهدٍ إضافي على أسطورة الثأر، إلى ذريعة جديدة تديم

---

* أول رواية كتبتها هي الساعة الثامنة والنصف وقد استحسن بعض النقاد منهم د عبد الرضا علي والدكتور صالح الرزوق والدكتور عبد الرحيم مراشدة استحسنوا هذا التجديد المنهجي في الرواية الواقعية.

دورة الانتقام، كأنها ليست إنسانة من لحم ودم، بل مجرّد رمزٍ تُقاد إلى الذبح. شعرت أن الجحيم قد فتح على مصراعيه فوق رأسها ورأس طفلتيها، وأن لا منفذ للخلاص."(ص 4)

والمتتبع للرواية حتى آخر صفحة يجد أن الوصف الخارجي يتوازى مع الوصف الداخلي بوصف الإثنين مسارين متوازيين، يكاد توازيهُما يشكلّ اندماجا يزيد الرواية تألقا وتماسكا.

فليس الوصف الخارجي لمجرد الوصف والاستعراض البلاغي بل يأتي ليمهّد لعوالم الإثارة والتعبير عن الحياة بصورة أدقّ مما تراه العين وتسمعه الأذن. ولعلّني يجب أنّ أذكّر أن الأسلوب الواقعي يبدو سهلا لكنه سهل ممتنع إن لم يكن الكاتب الروائيّ القاصّ ذا موهبة وخبرة فإنّ السرد الواقعي عنده يتحوّل إلى كلام مباشر ضعيف ومما تجدر الإشارة إليه أنّ الكاتب العربي الوحيد من الرواد المعاصرين الذي استطاع أن يتحكّم في السرد الواقعي هو نجيب محفوظ بلا منازع في حين سقط كتاب كثيرون معاصرون له في المباشرة وبخاصة كتاب الواقعية الذين عاصروه في مختلف البلدان العربية ومنها العراق وهنا لابدّ من أن أشير إلى أنّ الكاتبة السيدة سعاد الراعي تجاوزت باقتدار قضيّة المباشرة لتكتب بأسلوب واقعي رصين.

أمّا استخدام أسلوب الواقعيّة المستنيرة فنجده يتحقق في كثير من المشاهد وقد لفت نظري أنّها تنتقل بمهارة من

الأسلوب الواقعي إلى أسلوب الواقعية المستنيرة بشكل حسّاس حين يتطلب المشهد التحوّل:

"وبينما كانت تُضرَب وتُهان، راودها خاطر مرّ كالسكين"... أسلوب واقعي

بعد الفقرة نجدها تضع العبارة التالية بين قوسين:

«أنّها لم تمت بعد، لكنها في نظرهم قد ماتت بالفعل؛ ماتت كإنسانة، ولم تبقَ سوى جسدٍ يُنهش ليُشبع عطش الطائفة للانتقام.»

الفقرة نفسها كتبتها بحبر غامق لأنها أسلوب آخر، أسلوب واقعي يتخذ شكلا موازيا لما سبقه من تعبير ويختلف عنه، ولنا مثال آخر، حيث لا يترادف الأسلوبان أي أن يأتي الواقعي قبل الآخر لكنْ يتقاسم الأسلوبان الفقرة ذاتها كما نجده في الفقرة التالية:

"مدّ يده عبر الفجوة بينهما، ودفع بالشاحن نحوها. لحظتها، أحست عفراء كأنها عبرت جسرًا خفيًا بين زمنين:"

وحين تنتهي الفقرة الواقعية تطل علينا بعد النقطتين فقرة أخرى بين قوسين تختلف في صياغتها الواقعيّة

«زمنٍ كانت فيه مرعوبة تتوسل النجاة، وزمنٍ جديد تستعيد فيه إرادتها المسلوبة.»

إنّ الفقرات المرسومة بخطّ ثخين هي أسلوب واقعي يختلف عن الأسلوب الواقعي التقليدي، وبهذه الطريقة حقّقت الرواية نضجها وجمالها وتأثيرها في الوقت نفسه رسمت ملامح مجتمع متباين وكشفت عن نفسيته: برقته وعنفه، كلّ ذلك ورد بعبارات موجزة واقتصاد في السرد كما يطلق عليه النقاد المحدثون.

الدكتور قصي الشيخ عسكر

نوتنغهام/ 25.09.12

الفصل الأول

عفراء في مهبّ الطائفية

لم تكن الشتيمة التي ارتطمت بأذن عفراء سوى كلمة عابرة في ظاهرها، لفظة يومية ممجوجة اعتادت أن تُلقى في وجهها بلا اكتراث، غير أنّها في تلك اللحظة لم تكن مجرّد صدى باهت، بل الشرارة الأولى التي أشعلت نارًا هوجاء ستأتي على ما تبقّى من حياتها. أحسّت كأنّ الكلمة، على الرغم من صغرها، قد شقت جدار صمت طويل، فارتجّ قلبها قبل أن ترتجّ الجدران.

فجأة، اهتزّ البيت القديم بانفجار الباب، كأنّ عاصفة من الجحيم هبطت لتقتلع سكينته. ارتطم الخشب المهترئ بجدار الصالة ارتطام قنبلة، فتردّد الصوت في أرجاء الدار كهدير موت

يقترب. وما هي إلا لحظات حتى اندفع إخوة زوجها إلى الداخل، وجوههم الداكنة عابسة كالأقنعة الغاضبة، عيونهم تلتمع بلمعانٍ راعد لا يشبه عيون البشر، بل يشبه لهبًا متقدًا بالثأر. كان المشهد أشبه بقطعان ذئاب جائعة وجدت فريستها أخيرًا.

ارتجفت ركبتاها، لكنها تماسكت بحدس غريزي، تحاول أن تفهم، أن تلتقط من وجوههم جملة تفسّر هذا الجنون، غير أنّ الكلمات تأخرت، والأيدي سبقتها بعنف صاعق. انهمرت اللطمات والركلات على وجهها كالمطر الأسود، وانغرست قبضاتهم في جسدها الضعيف، بينما كانت صغيرتاها تصرخان في هلعٍ يضاعف عجزها. تحوّلت اللحظة إلى دوامة من الألم والضجيج، والبيت إلى ساحة حرب بلا رحمة.

كانت صيحاتهم تنفجر في الهواء كالرعود:

ــ أهلك قتلو اخانا، زوجك!

انكمشت الأرض تحت قدميها، كأنها لم تعد أرضًا بل هاوية تسقط فيها بلا قاع. لم تعد الوجوه وجوهًا، بل جمراً متقدًا بالكراهية. لم تعد الكلمات كلمات، بل خناجر تطعن روحها قبل جسدها. شعرت بالهواء يضيق في صدرها، مزيجًا من عرق الغضب وأنفاس الغيظ ورائحة الدم التي تسللت من أنفها إلى شفتها الممزقة. صار المكان خانقًا، كقبر حي، يُدفن فيه صراخها مع كل نفس.

لم تجد ما تفعله سوى أن تضمّ طفلتيها المذهولتين والباكيتين بذراعين مرتجفتين، تحاول أن تشكّل بجسدها الهزيل درعًا واهنًا، تعرف أنه سيتحطم أمام أول ركلة، لكنها لم تجد غيره سبيلًا لتأجيل موتهما. كل صفعة كانت تسقط على وجهها، كانت تظن أنها ستصل إلى وجهيهما، فتشدّهما إليها أكثر، وكأنها تتوسد بهما لتستمدّ من براءتهما القليل من الصمود.

كانتا تحدّقان بعيون غارقة في الذهول، كأن العالم انحصر أمامهما في وجه أمّ تُجلَد بلا رحمة. ارتجفت أصابعهما الصغيرة وهما تتشبّثان بثوبها الممزق، تبحثان في حضنها المرتعش عن مأوى من طوفانٍ لا يُدركان معناه، سوى أنه يهدّد كيانَهما الصغير بالانهيار.

كل صفعةٍ سقطت على وجهها، كان صداها يرتطم بقلبيهما، فيرتعشان كأن الألم انتقل إليهما خفيًّا. لم تفهما لماذا تُهان أمّهما، ولا كيف يتحوّل البيت إلى ساحة عذاب، لكنّهما شعرتا أن الكون كله قد انقلب إلى سوطٍ يجلد أضعف ما فيه: امهما، تلك المرأة التي طالما ضمّتهما برفقٍ وحمت أحلامهما من الكوابيس.

كانت دموعهما تختلط بدموعها، حتى صار البكاء واحدًا، وجسد الأم وذراعاها المرتجفان غدتا آخر قلاع الحماية. كانت تُطوّق جسديهما بساعدين كالهشيم، تضعهما بين صدرها وجدار الضربات، وكأنها تفتديهما بكلّ ما تبقّى من جسدها المنهك. وفي عيونهما الصغيرة ارتسمت صورةٌ ستظل

محفورة للأبد: أمٌ تتكسّر أمامهما، ومع ذلك تحاول أن تبقى جبلًا.

وفي خضم العاصفة، تسللت إلى وعيها الحقيقة القاسية: لقد قُتل زوجها، ليس لأنه اقترف ذنبًا، بل لأنه رفض أن يذعن لأوامر الطائفتين، رفض أن يطلّقها هي، «**السنيّة**»، ليصون دمه «**الشيعي**». دفع ثمن رفضه بطعنة غادرة في دكانه، والآن جاء دورها لتكون قربانًا جديدًا يُقدَّم على مذبح الطائفية العمياء.

كانوا يريدون غسل دمه بدمها، تحويلها إلى شاهدٍ إضافي على أسطورة الثأر، إلى ذريعة جديدة تديم دورة الانتقام، كأنها ليست إنسانة من لحم ودم، بل مجرّد رمزٍ تُقاد إلى الذبح. شعرت أن الجحيم قد فتح على مصراعيه فوق رأسها ورأس طفلتيها، وأن لا منفذ للخلاص.

لكن مأساة عفراء لم تتوقف عند هذا الحدّ. ففي الوقت الذي كانت فيه صرخاتهم تمجّد زوجها المقتول:

«شهيدًا كما يدعون»

لم تستطع أن تمحو من ذاكرتها قسوته هو نفسه عليها. كان شريكًا في كسرها، يغضّ الطرف عن إهانات اهله، بل يشاركهم في تجريحها وسحق كرامتها، يتلذذ بضعفها ليشعر برجولته الواهنة. لم يكن في موته خلاص لها، كما لم يكن في حياته سندًا. رحيله لم يحررها، بل دفعها من سجنٍ مألوف إلى جحيمٍ أعمق.

تذكّرت لياليها القاسية معه، حين كان يتركها تبكي وحدها بينما يغطّ في نوم ثقيل. تذكّرت كيف كانت أصوات إخوة زوجها تعلو في البيت، يتدخلون في كل تفاصيل حياتها، يصرخون في وجهها لأتفه الأسباب، ويضربونها بحضوره، فلا يجد في نفسه غضاضة أن يشيح بوجهه، بل ربما ابتسم في سرّه لأنه رأى فيها عبرة تذكّرها بمكانتها الدونية.

الآن، وهم يهجمون عليها كالوحوش، كانت تشعر أن الموت يحيطها من كل جانب: موت جسدها الذي يتلقّى الضربات، وموت روحها التي عاشت مديدة في قفص الإهانات، وموت أملها الأخير في مستقبل آمن لطفلتيها.

أي مستقبل يمكن أن يولد في بيت تحكمه الكراهية، وفي دولة تنخرها العشائرية والطائفية حتى العظم؟

بين ارتطام الأجساد وصراخ الأطفال، لمحت وجه ابنتها الكبرى، وقد تجمّد فيه الرعب. نظراتها الواسعة البريئة كانت كمرآة تعكس لها حجم الكارثة: ماذا سيبقى من طفولة هذه الصغيرة حين ترى أمها تُسحق أمام عينيها؟ أي ندبة ستخلفها هذه اللحظة في قلبها الصغير؟ وأي ضوء يمكن أن ينقذها من ليلٍ كهذا؟

تمنّت عفراء لو أن الزمن يتوقف، لو أن الباب لم يُفتح، لو أنّ الحياة منحتها فرصة واحدة لتصرخ في وجوههم:

ـ أنا لست عدوّتكم، أنا أمّ تحمل على كتفيها جرح هذا الواقع مثلكم.

لكن صوتها كان محبوسًا في صدرها، يختنق تحت وطأة الركلات والشتائم.

كل شيء في المكان تآمر عليها:

الجدران الصامتة، الأثاث المهتزّ، حتى المصباح المعلّق في السقف كان يتأرجح مثل مشنقة تُعدّ لها.

شعرت أنها غريبة في بيتها، مُجرّدة من كل حق، مُحاصرة بين ماضٍ لم يرحمها وحاضر يلتهمها ومستقبل مسدود لا يَعِد سوى بالهاوية.

وبينما كانت تُضرَب وتُهان، راودها خاطر مرّ كالسكين:

ربما كانت مجرد رقم في سجل طويل من الضحايا، لا أحد سيذكرها سوى طفلتيها، ولا أحد سيبكيها في غدٍ ملطخ بالدم. وراودها شعور أكثر مرارة:

«أنّها لم تمت بعد، لكنها في نظرهم قد ماتت بالفعل؛ ماتت كإنسانة، ولم تبقَ سوى جسدٍ يُنهش ليُشبع عطش الطائفة للانتقام.»

ارتفعت صرخات بناتها أكثر، فارتجف قلبها. تلك الصرخات لم تكن مجرد بكاء طفلتين، بل نداء استغاثة للعالم بأسره، علّه يسمع ويرى. لكن العالم كان أبكم أصمّ، كما كان دومًا.

هكذا وجدت عفراء نفسها في مهبّ الطائفية، امرأة ضعيفة بلا سند، يطحنها واقعٌ جائر لا يعرف الرحمة. لم تكن تدرك إلى أين ستمضي بها الأحداث، لكنها أيقنت أن حياتها انكسرت عند تلك اللحظة، وأنها، منذ الآن، لن تكون سوى ظلّ امرأة، شبحًا يلاحقه وجعٌ لا ينتهي.

عفراء... طفلة الأمس، بسمرتها الجنوبية المضيئة كدفء شمس الفجر على بساتين نخيل دجلة، وبعيونها السوداء الواسعة التي كانت تلمع ببراءة ومرح، كأنها نوافذ صغيرة على الفرح. لم يُتح لها أن تُكمل مقاعد إبتدائيتها، حتى تقدّم لخطبتها رجل من طائفة أخرى. لم يتوقف أهلها طويلًا عند حدود المذهب، فقد طغت سطوة المال على يقينهم، ورأوا في يسرِه صفقة العمر. وهكذا دفعوا بابنتهم الغضة إلى يديه كما تُدفع أمانة إلى غريب، غافلين عن أنهم سلّموها إلى قدرٍ معتمٍ لا يرحم.

ومنذ تلك اللحظة، انزلقت حياتها إلى أرض رخوة، حُفرت فيها أخاديد الطائفية بالحقد والعداوة، وصار جسدها الندي وروحها البريئة ساحةً لتصفية ثاراتٍ قديمة بين الدم والدم.

الليل كان قد بدأ يسدل ستائره الثقيلة حين خبت العاصفة الأولى. جلست عفراء في زاوية غرفتها، وطفلتها الصغرى نائمة على حجرها، بينما الكبرى تحدّق في العتمة بعينين واسعتين، خائفتين كمن شهد نهاية العالم. كان صمت الليل يقطعه صدى بعيد لرصاصٍ يتردّد في أزقة المدينة. كل شيء في الخارج يذكّر بالموت، حتى نباح الكلاب بدا كتحذيرٍ من غول يتربّص خلف الظلام.

انطفأت مصابيح الشارع، وبقي نور القمر يتسرّب عبر الشقوق، يسقط على الجدران الرطبة فيرسم أشكالًا مخيفة. أحسّت أنّ البيت كله صار مسرحًا للرعب، وأنّ كل زاوية فيه تحمل خنجرًا مخبوءً أو عينًا تترصّدها. رائحة الدم لم تفارق المكان، مختلطةً برائحة الدخان والعرق، حتى صارت جزءًا من أنفاسها.

الآن، وقد صارت أرملة بين ليلة وضحاها، لم تجد حولها سوى صغيرتيها اللتين التصقتا بها كغريقتين تبحثان عن قشة نجاة. كان بكاؤهما المكتوم يدوّي في أعماقها كصدى سؤال مرير:

«من يحميكِ ويحمينا؟»

لم تجد جوابًا سوى دمعة ساخنة انسابت على وجنتيها، تكثّفت فيها كل وحشتها. أدركت أنّها وحدها تمامًا، تواجه عاصفةً أكبر من قدرتها، وأنّ لا سند لها غير صبرٍ يذوي ودمعٍ يتدفّق.

ومنذ تلك اللحظة، دخلت حياة جديدة، أشبه ما تكون بقبر مفتوح. أُغلقت الأبواب عليها، ومُنع عنها الضوء، حتى زيارات أمّها وأخوتها حُرمت منها. لم تعد ترى أحدًا، ولا يُسمح لها بالخروج إلى السوق أو إلى جيرانها. أرادوا لها أن تتعفّن حيّة في زوايا الدار مع طفلتيها، كأنها جثة تنتظر ساعة دفنها.

ولم يكتفوا بذلك، بل خطّطوا لمصير أشدّ قسوة:

تزويجها إلى شقيق زوجها القتيل بعد انقضاء عدّتها الشرعية، لا حبًا ولا رأفة، بل انتقامًا وتشفيًا. أرادوا أن يحوّلوها إلى أسيرة جديدة في بيت أشدّ قسوة، إذ كان ذلك الأخ أحقدهم عليها وأقساهم قلبًا. لا تنسى كلماته حين قال لها وبكل ما تحمله عجرفته الوقحة:

ــ سأجعلك جارية تحت قدمي حتى تُقبري.

هكذا، صارت عبدةً مقيّدة، مسلوبة الإرادة، يُراد لها أن تقضي ما تبقّى من عمرها في خدمة جلاديها. شعرت بالدنيا تدور بها، سوادًا كثيفًا يغمرها، دموعها تفيض حتى كادت أن تذيب جفونها، وصوت داخلي يلحّ عليها بسؤالٍ لا ينطفئ:

«كيف الخلاص؟»

كانت الأخبار تتسرّب إليها خلسةً كهمسٍ بعيد، تحمل معها وجعًا آخر أثقل من طاقتها: أهلها لم يكونوا في منأى عن

التهديدات التي تلاحقهم ليل نهار. لم ينجُ أحد من لعنة الدم التي صارت تطاردهم أينما حلّوا، كأنهم شركاء في جريمة لم يعرفوا عنها سوى وقعها على ابنتهم. حاولوا جاهدين أن يثبتوا براءتهم من التهمة التي طالتهم ظلمًا، يطرقون الأبواب، يستجدون العدالة، يرفعون أصواتهم أمام كل من يُصغي، لكنّ الحقيقة ضاعت بين جلجلة الثأر وصمت الخوف، فظلّت صرخاتهم معلّقة في الفراغ، بلا صدى.

ولمّا ضاق بهم الحال، عزَموا على الرحيل، تاركين العراق كلّه خلف ظهورهم، يلوذون بالمنفى هربًا من سطوة الدم المهدور. أرادوا أن يأخذوها معهم، أن ينقذوا ابنتهم من المصير الأسود، لكنّ أخ الزوج سدّ الطريق، وتصدّى بوجهٍ متجبّر كأنه قاضٍ ينطق بحكم القدر. اعتبر نفسه الوريث الشرعي لأخيه في كل شيء، حتى في زوجته وطفلتيها، ففرض سطوته عليها كما يُفرض الليل على نهارٍ منهك.

كانت تسمع عن مآسي أهلها من بعيد، فتشعر أنهم يواجهون مأساتها بوجه آخر، كل منهم يقتطع من قلبه ليحفظ كرامته ويثبت براءته، بينما هي تُساق إلى مصيرها كجارية مسلوبة الإرادة. أيُّ عجزٍ هذا الذي جعلها تتجرّع ألمها وحدها، وأيُّ ظلمٍ ذاك الذي طعن أهلها مرتين:

مرة حين خسروا ابنتهم حيّة، ومرة حين وُسموا بعارٍ لم يرتكبوه!

هكذا غدت مأساة عفراء مأساة مضاعفة، لا تخصّها وحدها، بل انسكبت ظلالها الثقيلة على أهلها جميعًا؛ كلهم عالقون في دائرة ظلم واحدة، وكلهم ينزفون بلا عدالة، فيما القدر يسخر منهم جميعًا.

عندها راحت تسأل نفسها بأسى يائس:

«أية حفرة مظلمة وقعتُ فيها؟ أي مستقبل ينتظر ابنتَيَّ؟»

أسئلة كالسياط تتناوب على رأسها، تحرق روحها ليلًا ونهارًا.

كلما خطرت ببالها فكرة الانتحار كمهرب، ارتسمت ملامح طفلتيها أمامها، حاجزًا يمنعها من الفناء:

«أي يدٍ ستمسح دموعهما إن رحلت؟ أي صدرٍ سيحتضنهما إن تركتهما؟»

ظلّت معلّقة بين هاوية الانتحار وظلمة المصير الذي يُحاك لها، تتقلّب بين العجز والرعب، تبحث عن بصيص نورٍ في نفقٍ لا نهاية له. كانت تدرك أنّها ليست سوى ضحية صغيرة في حرب طائفية كبرى، وأنّ حياتها الممزقة ما هي إلا مرآة لعنفٍ أعمى يحكمها.

عفراء... امرأةٌ ضعيفة لم تختر قدرها، ولم تجد من ينصفها، محكومة بقوانين لا ترحم، وبأعراف لا تعرف غير الثأر. كل ما بقي لها أن تتشبّث بطفلتيها، لعلّ حنانهما يمدّها بجرعة حياة،

أو يهبها شجاعةً لمقاومة ليلٍ طويل، ليلٍ قد يطول حتى يتماهى مع الأبد.

الفصل الثاني

خيط في العتمة

وجدت عفراء نفسها عارية من كل حماية، لا سلاح لها سوى الصمت والدموع. الليل عندها كان أثقل من أعمار الدهر كله، يمتد كأبدٍ موحش، والنهار يتحول إلى ساحة حصار لا مخرج منها ولا ملاذ.

ومع ذلك، تسلّل إليها خيط أملٍ واهن، كوميض شمعة في عاصفة، عبر يدٍ صديقة قديمة ترتبط بقرابةٍ بعيدة لعائلة زوجها، ما سمح لها بطرق باب عزلتها دون ريبة. تلك اليد دسّت لها سرًا ثمينًا: هاتفًا صغيرًا كان أهل عفراء قد تركوه

أمانةً عندها قبل أن يغادروا العراق، علّه يكون جسرًا يصلهم بابنتهم الأسيرة خلف جدران الخوف.

أخفت عفراء الهاتف كما تُخفى الروح بين ركام التأني، تغلّفه برعشة قلبها كلما لمسته، وكأنها تمسك بطوق نجاةٍ معلّق بمعجزةٍ مؤجّلة، تنتظر أن يفتح لها فجوة في جدار عزلتها، ويعيد إليها صوت الحياة.

ذات مساء، عادت بها الذاكرة إلى جارتهم القديمة، أم أحمد، المرأة الجريئة التي نجحت في إخراج أبنائها من العراق قبل أعوام، تساءلت عفراء:

«هل يمكن ليد تلك الجارة أن تمدّ اليها الآن خيط نجاة؟»

انتظرت عودة صديقتها في زيارة جديدة إلى بيت أهل الزوج، وما إن سنحت الفرصة حتى توسّلت إليها أن تحصل لها على رقم هاتف أم أحمد، متذرعةً بأنّها امرأة وحيدة ومريضة بالسرطان وتحتاج للاطمئنان على أحوالها.

وبالفعل، نالت ما أرادت.

وحين أرخى الليل سدوله الثقيلة وغرق البيت في صمتٍ خانق، بدت الجدران وكأنها تنصت لأنفاس ساكنيها. كانت عفراء في غرفتها، تبحث عن ركن قصيّ بعيد عن سرير طفلتيها الغافيتين، كأنها تهرب من ضجيج العالم إلى عزلتها الخاصة. تأكدت من أن الباب قد أُغلق بإحكام، ثم التحفت البطانيات

الثقيلة تغطي رأسها وجسدها، لا اتقاءً للبرد، بل خشية أن يتسرب صوتها المتهدّج إلى من يجاورها. كانت أشبه براهبة في صومعة معزولة، تحتمي بالصمت والظلام كي تُخفي ضعفها عن الأعين.

مدّت يدها المرتجفة نحو الهاتف، كأنها تستنجد بحبل نجاة أخير. ارتجف الجهاز بين أصابعها المرتعشة، قبل أن تفتح خطًّا إلى الخارج، إلى ما وراء جدران وحدتها الثقيلة. وما إن جاءها الصوت المنتظر حتى بدا وكأنه نسمة رقيقة تهب في قلب إعصار:

ـ «عفراء... كيف أنتِ يا حبيبتي؟ لقد حزنا لمصابك، وأعلم تمامًا ما تعانينه، فما غادرتِ فكري ولا فكر أبنائي يوماً.»

توقفت أنفاسها لحظة، إذ انسكبت عليها نبرة أم أحمد دفئاً وحناناً، كأنها ماء بارد يطفئ لهيباً داخلياً أو كفّ رحيمة تمتد لتمسح دمعة خفية. في تلك الكلمات البسيطة، شعرت عفراء أن جدار وحدتها قد تصدّع، وأن الصمت الذي كان يطبق على روحها قد انفرج ليمنحها متنفساً.

لم تستطع عفراء أن تجيب؛ بكت بصمت، وخنقها نشيجها حتى عجز لسانها عن النطق. أدركت أم أحمد بحسّ الأم حجم ما يعتصر قلبها، فقالت مواسية:

ـ «كل عقدة ولها حلّ يا ابنتي، فلا تيأسي. أنا هنا كأمك، بانتظار أن تبوحي لي بما يختلج روحك.»

جاء صوت عفراء مبحوحًا متقطعًا كأنّه يتكسّر بين الضلوع:

ـ «خلصيني يا خالة... إنّي أموت كل يوم ألف مرة.»

التقطت أم أحمد المفهوم، وفهمت ما وراء الكلمات، فأجابتها بحزمٍ حنون:

ـ «لا تخشي شيئًا، سأتدبّر الأمر قريبًا وأكتب لك بالتفصيل، لكن إيّاكِ أن تتساهلي في الحذر.»

لأول مرة منذ زمن طويل، أحسّت عفراء بأنّ صدرها يتنفّس بحرية.

ضمّت طفلتيها الصغيرتين، وغمرتهما بذراعيها، فيما قلبها يتهدّج بارتعاشة أمل، أمل خافت لكنه حقيقي، قد يكون مفتاح النجاة من ليلها الطويل.

منذ تلك المكالمة الليلية، تبدّل قلب عفراء. لم يعد ينبض كما كان من قبل، بل صار كوترٍ مشدودٍ بين الخوف والرجاء.

كان صوت أم أحمد في أذنها كأنشودةٍ بعيدة، لحنٌ هادئ وسط ضجيج العاصفة، يبعث شيئًا من الطمأنينة في قلبٍ أنهكه الرعب.

كلماتها: **"كل عقدة ولها حل"** ظلت تتردّد في روحها كترتيلةٍ صغيرة تعيدها إلى الحياة، وكأنها يدٌ خفيّة تمسح على جراح

نازفة منذ زمن. كانت تلك الجملة وحدها كافية لتفتح كُوّة ضئيلة في جدار ليلها الطويل، كأنها تقول لها:

«لا بد أن للفجر موعدًا، مهما طال الليل.»

بعد أيام، وصلت إليها رسالة قصيرة على هاتفها، كأنها شفرة نجاة.

ـ «علينا أن نتحرّك بحذر. لا تتعجّلي. سأمدّ لكِ خيطًا واحدًا كل مرة، حتى تخرجي من هذا القبر... اصبري.»

قرأت عفراء الكلمات مرارًا حتى حفظتها، ثم خبأتها بين ثنايا قلبها، كأنها تعويذةٌ سحرية تحرسها من الانكسار. كان قلبها يتشبث بالحروف كما يتشبث الغريق بخشبةٍ في بحرٍ هائج.

بدأت ملامح الخطة تتضح شيئًا فشيئًا.

طلبت أم أحمد منها أن تراقب البيت بدقة:

مَن يزور، مَن يغادر، أوقات نوم العائلة، متى يخرجون إلى الأسواق، ومتى يسكن البيت تمامًا. عليها أن تحفظ كل ذلك عن ظهر قلب، فهذه التفاصيل الصغيرة هي مفاتيح الخلاص.

كانت الليالي تمرّ ثقيلة كالحديد. يجثم فوق صدرها خوفٌ لا يزول، يتناوب مع أملٍ هشّ كشمعةٍ في مهبّ الريح.

كانت كل مساء تجلس قرب ابنتيها النائمتين، تحدّق في وجهيهما الصغيرين، ثم تهمس في سرّها:

«لن أترككما في هذا الجحيم ابدًا... سنخرج، مهما كان الثمن.»

وكانت الدموع تهرب من عينيها، فتبتل وسادة الطفلتين وهما لا تشعران.

وفي ليلةٍ بعيدة، انساب إليها صوت أم أحمد عبر الهاتف، خافتًا لكنه واضحٌ كإشارةٍ لا تخطئها الأذن:

ـ «استعدّي. الليلة الثالثة من الأسبوع القادم ستكون فرصتك. سيأتي رجل أثق به، سينتظرك عند الباب الخلفي ساعة السحر. لا تحملي شيئًا سوى الطفلتين واوراق السفر. أيّ تردّدٍ سيُضيّع كل شيء.»

ارتجف قلبها كعصفورٍ في قفص ضيق. بين الخوف والرجاء وقفت حائرة:

ـ «هل حقًا يمكنها أن تغادر؟ هل يُعقل أن تنجو من سطوة تلك العائلة، ومن أعين الجيران، ومن الجدران التي مثلت حولها سجنًا للطائفة والعار والقيود؟»

الأيام التي تلت كانت أطول من عمرها. كانت تخطو في البيت مثل شبح، تحاول أن تخفي رجفة يديها وارتعاش عينيها، فلا

يلحظ أحدٌ ما يضطرب في داخلها. كل صباح ينهشها القلق، وكل مساء يوقد فيها الأمل شرارةً صغيرة تكاد تخبو لكنها لا تنطفئ. كانت تحفظ خبر الهروب بين ضلوعها، وتخاطب به جدران غرفتها الصامتة، التي ابتلعت دموعها مثل قبرٍ بلا صدى.

وحين جاءت الليلة الموعودة، كان الليل ساكنًا على نحوٍ مريب، كأنه يتآمر معها أو عليها. السماء معلّقة فوق البيت مثل غطاءٍ من رماد، والريح تتسلّل عبر الشقوق نافخةً بردها في أركان الغرفة. أيقظت طفلتيها برفقٍ وهمسٍ مرتعش:

ـ «هس... حبيباتي، لا تُصدرن صوتًا، لا تخفن، نحن ذاهبات في رحلة معًا.»

عيون الطفلتين تفتحت مذعورة، لكنهما أطاعتاها، تمسكتا بثوبها كما لو كان حبل النجاة الأخير. حملتهما بين ذراعيها، تتقدّم بخطواتٍ حذرة نحو الباب الخلفي، حيث يبتلع الظلام المكان كعباءةٍ سوداء.

هناك، سمعت نحنحة رجلٍ تتردّد ثلاث مرّات، متباعدة كما وصفتها لها أم أحمد. شدّت على ابنتيها وفتحت الباب، فإذا برجلٍ غريب الملامح يقف في العتمة.

لم تعرفه من قبل، لكن في صوته كان شيءٌ من الصدقٍ، جعلها تطمئن للحظةٍ وسط ارتجافها. همس لها بسرعة:

ـ «أنا من طرف أم أحمد... أسرعي قبل أن يفيق أحد.»

خرجت عفراء من العتبة التي كانت تسميها "بيتًا"، تتبعها طفلتاها الصغيرتان كظلالٍ واهنة، تتشبثان بأذيالها وكأن بهما حدسًا بأن الزمن الآتي أشد وطأة مما خلّفوه وراءهم. الليل الموحش قد أرخى سدوله، لكن الخوف هو من أطبق على أرواحهن، لا الظلام؛ خوفٌ يتجسد في كل زقاق، في كل شهقة ريح، وفي كل صمتٍ مريبٍ يسبق الضجيج.

كان برد كانون الثاني قاسيًا، لا يعترف بلحمٍ ضعيف ولا جسدٍ يرتجف. لسع الوجوه كأنما يؤنّبها على خطيئة الفرار، وتلاعب الريح بثيابهن كما لو كانت الحياة نفسها تعبث بهن عن سخرية لا تخفى. خلفهن صوت الباب يُغلق بحذر كضربة قدر، وأمامهن ليلٌ طويل لا ملامح له.

أزقّة الحيّ ضيقة، خانقة، رطبة بعطن الأزمنة الميتة، تفوح منها روائح المجاري والصمت المتعفن. المصابيح المعلقة على الأعمدة المهترئة تلقي ضوءًا شاحبًا، لا يطرد العتمة، بل يزيدها غموضًا، فانعكست على الجدران المهترئة وجوهٌ كأنها لُعناتٌ متجسدة، تحدّق بهن، تسخر من هروبهن، وربما تتحيّن لحظة الضعف لتفتك بهن.

وفي العتمة، بدا كل ظلٍّ عينًا، وكل حركة نذير خطر. قلب عفراء يخفق كطبول نجدة في صحراء من العجز، يكاد يخلع أضلاعها، لكنها لم تسمح له أن يُسمع. تماسكت بقوة امرأة لا

تملك ترف الانهيار، شدّت على يدي طفلتيها بقوة من يخشى أن يبتلعهما التيه إن تراخى، وهمست لنفسها، لا بالكلمات بل بالإيمان:

«لن أعود... لن أُسلمهما للجحيم الذي فررنا منه، ولو كان الثمن عبور الجحيم ذاته.»

كانت تعلم أن الليل لا يرحم الضعفاء، وأن الأزقّة لا تأوي من لا مأوى له، لكنها- رغم خوفها - لم تكن هشّة. كانت **الأمومة** قد انصهرت في عروقها، واستحالت نارًا لا تطفئها ريحٌ ولا يرعبها عواء الكلاب الضالة. كانت تلك الكلاب تقتفي أثرهن، تنبح كأنها تفضح سرًّا مكتومًا، لكن عفراء لم تلتفت. كان في عينيها ضوءٌ من نوع آخر، ضوء امرأةٍ سئمت أن تكون ضحية، وقررت أن تنحت بقدمين حافيتين طريقًا نحو النجاة.

لم تكن عفراء تفرّ فقط من رجلٍ أو بيتٍ أو ذاكرة... بل من اختزالها في شيءٍ هشّ، في كائنٍ لا صوت له. في تلك اللحظة، وسط بردٍ كالحديد وعتمة كالقبر، وطفلتين ترتجفان بردًا وخوفًا، وهاوية تتربص بها كبئر بلا قرار، كانت عفراء تولد من جديد.

كان الهروب فعل ضعفٍ عند البعض، أما في قلبها، فقد كان أول فعل قوة. كانت تخوض ثورتها الصامتة، تمضي نحو المجهول لا حبًا فيه، بل كرهًا لما خلفته وراءها.

طال الطريق حتى غدا اشبه بقرن ينوء بكلكله على جسدها المنهك، غير ان عزيمتها كانت اشد صلابة من كل ما يثقل خطاها.

احتضنت طفلتيها الناعستين بكل ما في قلبها من قوة الأمومة، تشدهما الى صدرها كمن يحتمي بالحب من برد المصير، وكأن ذراعيها قلعتان من حنان لا ينكسر. كانت خطواتها المتسارعة المربكة ترتطم بحجارة الأزقة، فتخرج منها أصداء مكتومة، كأنها ترتل نشيدًا خفيًا عنادًا لآلامها. والليل، على شدة وحشته بدا وكأنه يختبئ خلف صمته، يحبس أنفاسه مأخوذًا بملحمة امرأة تسير على الحافة بين الخوف والامل. وأخيرًا توقّف الرجل عند سيارة قديمة رابضة في العتمة، كأنها شاهدة على قدر يتهيأ للانكشاف. بدت السيارة كأنها تنتظرهم منذ دهر، مثل مركبة مقدر لها ان تحمل قصتهم نحو فصل جديد.

فتح الرجل الباب الخلفي، وأشار إليها بيد صامتة،

ـ اركبن بسرعة.

دخلت السيارة تحتضن طفلتيها بكل ما بقي من قوة في ذراعيها. ارتعش جسدها وهي تشعر لأول مرة أن الجدران التي طوّقتها سنين بدأت تتلاشى خلفها. كان صرير الإطارات على الطريق أشبه بصرخة تحرّر. لم تعد تسمع صخب البيت، ولا شتائم إخوة الزوج، ولا صرير أبوابهم المؤصدة. لم يبقَ سوى أنفاس ابنتيها الدافئة تختلط بدموعها، ورائحة الخوف

تنسحب تدريجيًا من صدرها، تاركةً مكانها لارتجافة أملٍ جديد.

في تلك اللحظة، همس قلبها بصوتٍ مبحوح:

«لقد بدأنا طريق النجاة.»

الفصل الثالث

فُلك النجاةِ إلى المجهول

كانت خلفيّة السيارة كأنها صندوق مُعدّ لهذا الغرض؛ صناديق مُحكَمة الإغلاق مصطفّة كجدارٍ صامت، وأرضية مفروشة ببطانياتٍ قذرة تفوح منها رائحةٌ قديمةٌ تشبه مزيج الغبار والرطوبة والسنين. لا نوافذ في هذا القفص المعدني، سوى فجوة صغيرة في الجدار الفاصل بينهم والسائق ونافذة سقفٍ صغيرة تسمح لشظيّة من ضوءٍ باهت أن تخطّ على الجدران خطاً رفيعاً يميّز بين ليلٍ كثيف ونهارٍ أقلَّ عتمة. هناك، في هذا الحيّز الضيّق، أحسّت عفراء أنّها في كهف يشبه سفينة النجاة؛

فُلك نوحٍ الذي قد ينتشلها من طوفان الجحيم الذي أغرقها، أو يبتلعها إنْ خانها موجُ القدر.

ـ تجاوزنا بغداد!

هكذا قال السائق وهو يهمس من خلف المقعد:

ـ الآن أنتم في أمان.

ابتسمت بمرارةٍ لا يراها أحد، فالأمان في وطنها صار كلمةً منزوعة النبض، قشرةً هشةً تنكسر تحت أصغر ذبذبة خوف. عفراء لا تدري إن كانت قد وضعت قدمها على طريق النجاة حقّاً أم أنّها انحدرت إلى دهليزٍ أشدّ عتمةً، لكنّها تعرف يقيناً أن الرجوع مستحيل، وأن اختبارات السماء لا تُعاد.

ضمّت صغيرتيها إلى صدرها كمن يضمّ قلبه الأخير، تُحصي أنفاسهما كي لا يخذلها الإيقاع، وتسدّ بأكفّها شقوق الارتجاف عن وجهيهما. لم يكن الخوف وحده جاثماً على صدرها؛ كان معه قطيعٌ من الأسئلة والغصّات والرجاء:

«إلى أين تقود هذه الطرق المتعرّجة؟

ماذا ينتظرها عند أوّل مفترق؟

وهل ستنجح في محو أثرها عن أهل زوجٍ يرون مطاردتها ثأراً مقدّساً لا يهدأ إلا بدمٍ أو خضوع؟»

الهروب خطوةٌ، أمّا النجاة فحربٌ تُخاض مع الزمان والمكان والناس والقدر.

لم تعد قصّتها شخصيّة فحسب؛ صارت مرآةً لمأساة امرأة تُعاقَب مرّتين: مرّةً لأنّها تجرّأت على كسر القيد، ومرّةً لأنّ قوانين الطائفة والأعراف المتربّصة تحرس أبواب الهواء.

في دفاتر الدمّ، الأنثى ظلٌّ يمرّ ولا يُرى، ورقمٌ يُستدعى للتسويات، فإذا رفعت صوتها سُمّي ذلك فجوراً، وإذا صمتت عُدّ صمتُها اعترافاً.

كانت الرائحة الثقيلة للديزل تتسلّل إلى رئتيها، تُذكّرها بأنّها ليست سوى حمولةٍ إضافيّة على مركبةٍ تمضي. يهتزّ الصفيح عند المطّبات كأنّه يتنهّد، وتتكاثر الشقوق في الصمت: خشخشةُ صندوق، صريرُ برغيّ، نقرةُ حجرٍ على البدن القديم. ومن النافذة الضيّقة في السقف، تقرأ الزمن:

عتمةٌ تتخلخل شيئاً فشيئاً، ثمّ خيط رماديٌّ يزحف على وجه العالم. خارج هذا الصندوق، تُفتَحُ محالّ وتُخبَز أرغفة وتُذاع نشرات، أمّا داخلَه فالساعاتُ تُعدّ بحركة محورٍ ومقياس وقود.

«إمّا الموت... أو الهرب إلى المجهول»

هكذا تضع عفراء المعادلة على ميزان أمومتها، وتعرف أنّ الكفّة لا تحتمل الحياد. الحرّيّة ليست ترفاً حين يكون القيدُ سكيناً على عُنق البنات. كانت تتذكّر طفولتها المصادَرة، طفلةً أُلبست

الحجاب قبل أن تفهم معنى الستر، ومنعت من اللعب قبل أن تتقن الهجاء. الآن، وهي تَحمل ابنتيها، تشعر أنّها تُهرّب مستقبلَهما من حفرةٍ حُفرت لهما باسم الشرف والسمعة والعشيرة، وأنّ عليها أن تدفع فديةً من قلبها في كلّ خطوة.

مدّت يدها المرتجفة إلى الهاتف، تُقلّب الشاشة كمن ينقّب عن نبعٍ في أرضٍ عطشى. ظهرت رسائل كثيرة، لا تدري متى وصلت، فالهاجسُ حين يعلو يصير حجاباً على الحواس. كلماتٌ من أهلها الذين تركوها، مثل قلوبٍ دامية وراء حدودٍ لا تُرى. ما إن قرأت السطور الأولى حتى انفجرت الدموع؛ دموعٌ حرّة كجيادٍ أُطلقت من عقال.

ـ «لا نحن في عمّان... كيف أنتِ؟»

أحسّت أنّ صدرها يتنفّس للمرّة الأولى منذ زمنٍ طويل، وأنّ حبلاً من نورٍ امتدّ إليها عبر الصحارى والحدود ونقاط التفتيش.

ـ «يا ابنتي، يا حبيبتي... كيف حالك وحدك هناك؟ غيابك يثقل أيامي، كأن الليل يجثم على صدري.»

ثم أتبعتها بأخرى:

ـ «كل لحظةٍ تمرّ من دونك، أشعر أنني اسير في عالم فارغ. سامحيني إن قصّرت، سامحيني إن تركتك في مواجهة المصائب وحدك.»

واخرى، أشبه باعترافٍ دامع:

ـ «كنتُ أظن أنني قوية، لكنني بدونك أضعف من ظلّ يتلاشى مع غروب الشمس. أشتاق أن ألمسك، أن أضمّك، أن أسمع حتى تنفّسك.»

وأردفت :

ـ «نامي يا ابنتي بطمأنينة... فأنا أسهر لك بالدعاء. ليت يدي تطال جبينك، فأمسح عنك كل هذا العناء.»

أسرعت تكتب لهم: كلماتٌ قصيرة، لكنّها مكتوبة باتقادٍ داخليّ لا يُرى. تطلب منهم ألّا يذكروا اسمها لأحد، وأن يُبقوا على الدعاء مشتعلاً، وأن يهيّئوا لها ظلاً تدخل فيه حين تصل.

في تلك اللحظات الخاطفة، أدركت ما لم تكن تنتبه إليه من قبل: أنّ النجاة شبكةُ تفاصيل صغيرة تصنع المعجزة؛ شال يخفي ارتجاف كتف، زجاجة ماء محشورة عند الزاوية، شريحة هاتفٍ احتياطيّة في بطانة حقيبة، شهادات ميلاد مطويّة في كيسٍ بلاستيكيّ، مشبكُ شعرٍ يمكن أن يفتح قفلاً صغيراً إن أُغلِق عليها الباب.

وأكثر من التفاصيل، كانت هناك شيفرةٌ بشريّة تُفكّك المصيدة: كلمةُ مرورٍ اتفقوا عليها مع السائق، نظرةٌ يرسلها من مرايا السيارة عبر فجوة بينهما تعني **"اصمتي الآن"**، وأخرى تعني **"تنفّسي"**. كانت تحسب المسافات بنبض قلب، وتستمع إلى

حدسها لتميّز بين يدٍ تُسعف ويدٍ تتاجر بالبؤس. فالهاربون، كما تعلّمت في قسوة التجربة، يصيرون سوقاً، وأسماؤهم بضائع. لكنّها آثرت أن تصدّق هذا الرجل الذي عرّفه لها القدر، لأنّ الشكّ إن زاد حوّل الحياة إلى سجنٍ بلا قضبان.

«أنا ضعيفةٌ»

تقولها في سرّها دون جلدٍ للذات، بل باعترافٍ صادقٍ بحقيقةٍ تفرضها الجغرافيا والقوانين. ضعفُها ليس اختياراً، بل نتيجةُ منظومةٍ تُسقِط النساء خارج إنسانيّتهنّ. ومع ذلك، كانت في هذا الضعف قوّةٌ من معدنٍ آخر؛ قوّةُ من يعرف أنّ عليه أن ينجو لا لأنّه الأقوى، بل لأنّ خلفه من هم أضعف. كانت تتعلّم بسرعة: كيف تُسكت رعبها كي لا يفزع الصغيرتان، كيف تقسّم لقمتها إلى ثلاثٍ متساوياتٍ ولو جاعت، وكيف تجعل من الصمت معبراً حين يصير الكلام فخّاً.

مرّت السيارة بمحاذاة أولى نقاط التفتيش خارج العاصمة. هدأت السرعة، ولاذت الأصواتُ بحذرٍ جليّ. كان قلبها يطرق كما لو أنّه يوشك أن يُسمَع. تشبّثت بثوب الصامت، ودفنت وجهي الطفلتين في حضنها كي لا تُغريهما همسات الأسئلة. سمعت تحيةً غليظة، ثمّ تبادلَ هويةٍ ونظرةٍ وخشخشة أوراق نقدية. انطلقت السيارة بعد دقائق، دقائق لم تقسها عقاربُ ساعةٍ بل ساقيةُ عرقٍ سالت من صدغها إلى فكّها دون أن تجرؤ على مسحها.

في فسحةٍ قصيرةٍ من الطريق، مالت عفراء برأسها نحو النافذة الصغيرة فوقها تُصغي إلى السماء. كان المساء يضع أولى خرزاته على عنق الأفق. فكّرت:

«المجهول ليس أرحم من الماضي، لكنّه على الأقل مساحةٌ يمكن أن يُكتب فيها نصّ جديد.»

تذكّرت أحلامها اليتيمة التي تُركت عند بوابات المدرسة: أن تدرس، أن تصير ممرّضةً تمسك يدَ مريضٍ بلا خوف، أن تعمل مربّيةً تعلم الأطفال أن العالم أوسع من حدود الطائفة وأدفأ من جدار العشيرة. تلك الأحلام لم تعد قصاصاتٍ في دفتر؛ صارت أسباباً للنجاة.

كتبت لأهلها مجدّداً:

ـ «إذا وصلنا إلى الحدود سأخبركم... لا تُقلقوا، واستمروا بالدعاء، فالدعاء حبلٌ وأنا أتسلّق.»

شعرت بأنّ عمّان لم تعد اسماً بعيداً على لافتة، بل حضناً يتشكّل في الخيال.

ليس أمامها وأمام طفلتيها إلا خياران:

الموتُ في ماضيها الذي يعرف سبلَها كلُّ متربّصٍ، أو الهربُ إلى المجهول حيث يمكن للأقدار أن تُعيد ترتيب الأوراق. اختارت المجهول، لا لأنّها تُحبّ المغامرة، بل لأنّ الحياة أحياناً

تُختصر في منعطفٍ واحدٍ: أن تمنح أبناءك غداً أفضل أو تسلّمهم لذئاب الأمس. في هذا الاختيار، قد تبدو عفراء ضعيفةً في عيون القانون العاثِر، لكنّها في ميزان المعنى أقوى ممّن صاغوا لها السلاسل.

واصلت السيارة ابتلاع الطريق، وحين غلب النورُ غبشَ العتمة، أحسّت أنّ قلبها بدأ ينسجم مع إيقاعٍ جديدٍ للكون. همست لنفسها وهي تطبق جفنيها:

«لن أعود إلى القيد، ولو كان الطريق إلى الحرّيّة مفروشاً بالخوف. سأحمل المجهول كصحيفةٍ بيضاء، وأكتب عليه أسماءنا بثبات.»

ثمّ شبكت أصابعها بأصابع طفلتيها، كأنّها توقّع مع الغد معاهدةً لا تملك سواها: أن تبقى على قيد الأمل، مهما تكسّر في الطريق من جسور.

الفصل الرابع

ليلةٌ على حافّة المجهول

سألت عفراء، وصوتها يزاحم رجفةَ العجلات:

ـ أين نحن؟

أجاب السائق وهو يثبت عينيه على الطريق:

ـ باتجاه الشمال... إلى السليمانية. سنرتاح هناك، ثم نُكمل غداً، على الأغلب، نحو تركيا.

شهقت، كأنّ الهواء انكسر في صدرها:

ـ تركيا؟

قال ببرودٍ ناعم:

ـ ومن تركيا ستتدبّرين أمركِ إلى أوروبا... هكذا كان الاتفاق.

همستُها خرجت كاستغاثة:

ـ لكنّي أريد الذهاب الى حيث أهلي... إلى عمّان.

التفت قليلاً، ضاق صوته:

ـ ولماذا لم تُخبِريني من قبل؟

ـ أنا آسفة... لم أعلم إلّا قبل قليل أن أهلي في الأردن.

هزّ كتفيه كمن يزيح عن نفسه عبئاً:

ـ هذا صعب عليّ... عندي مشاغل والتزامات.

توقّفت السيارة عند باحةٍ إسمنتيةٍ واسعة تحدّها حيطانٌ عالية، كراج نصف مظلم، تتدلّى على مدخله مصابيح نيون ترتعش كنبضٍ مُجهَد. أطفأ المحرّك، نزل، وقال وهو يغلق الباب:

ـ لقد وصلنا. الليل طويل، ولا أقود في الظلام. والسيارة تحتاج وقوداً. سنرتاح حتى الفجر.

همّت بالنزول وراءه، وابنتاها لا تزالان في غفوةٍ معلّقة بين تعبٍ وخوف، فتعلّقت بصوت رجاءٍ يُبلّل الحصى:

ـ أرجوك... أنا وحيدة. ليس لي ولأطفالي في هذه العتمة غير ضميرك ورحمتك.

رفع حاجبيه، ثم تمتم:

ـ أديتُ ما عليّ... سنرى غداً. ربما أجد من يوصلكِ إلى حدود الأردن. الآن أريد النوم... هل تريدين المجيء معي؟

اسوَدّت الدنيا في عينيها. فهمت الإشارة التي لا تُقال. غصّت الدموع في حلقها ثم قالت بثباتٍ جليّ:

ـ لا... سأبقى مع طفلتيّ في السيارة.

رجاءً...

فكّر في هؤلاء الصغار...

إن كان لك أولاد.

تنهّد السائق بملل، ومال برأسه:

ـ سنرى، وغدًا يحلها ألف حلّال.

ثمّ استدركت بهمسٍ خجول:

ـ إذا أمكن... اشترِ لهم شيئاً من الطعام والماء.

لم يُجِب. أغلق الأبواب بإحكام، وابتلعته العتمة مع وقع خطواتٍ تتباعد.

عاد الصمتُ يزحف بثقلِ زيتٍ مسكوب. خلفيّة السيارة، تلك الحُجرة المعدنية التي ظنّتها **"كهف سفينة نوح"** ساعة هروبها، بدت الآن كقبوٍ يتهامس فيه الظلام. بطانياتٌ قذرة تفوح منها رائحةُ العتق والرطوبة، صناديقُ مغلقة مرصوصة كجدرانٍ صمّاء، نافذة سقفٍ صغيرة لا تُري إلا خيطاً شاحباً من الضوء.

في الخارج، نباحُ كلابٍ ضالة، صفيرُ ريحٍ يجرّ غبار الساحة، وضحكاتٌ متقطّعة لرجلين مرّا ثم ابتعدا. مدينةٌ غريبة، طالما سمعَت أنّها تشتهر بسماسرةِ الدعارة والاتجار بالبشر وبالأعضاء؛ اسمها وحده صار فزّاعةً بالنسبة لها. تساءلت وهي ترتجف:

«هل يمكن أن يبيعني الرجل؟ هل أنا سلعة على قائمة الأسعار؟»

جلست تُحاذي الباب من الداخل، تسند ظهرها إلى لوح الصفيح، وتضمّ ابنتيها إلى صدرها كمن يحرس نبضه بمفتاح. كانت طفلتها الكبرى تهمهم بنومٍ مضطرب، فمرّرت كفّها على جبينها وتنفّست بعمقٍ كي تُسكت رعشة القلب. في تلك اللحظة انفتح في رأسها ميزانٌ لا يعرف الإنصاف:

«خياران لا ثالث لهما؛

موتٌ معلومٌ في حضن الطائفة وقوانينها التي تخلط الشرف بالدم،

أو هروبٌ إلى مجهولٍ قد يبتلعها ويعيدها أشلاءً في خبرٍ صغير.

اختارت المجهول، ليس لأنّ فيه بطولةً، بل لأنّ فيه احتمالَ نجاةٍ لطفلتين لا تفهمان من العالم سوى رائحة أمّهما.»

راحت تجرد ما تملك:

حقيبةٌ صغيرة في الزاوية، فيها نسخٌ لشهادات الميلاد وجواز سفر مطويّة في كيسٍ بلاستيكيّ، بعض النقود في جيبٍ خفيّ، شريحة هاتفٍ احتياطية، قطعةُ خبزٍ يابسة، زجاجة ماءٍ نصف ممتلئة، ومشبكُ شعرٍ معدنيّ. «**هذه ليست مقتنيات**» قالت لنفسها، «**هذه أدواتُ حياة**» سحبت هاتفها. البطارية تُعلن تمردها على الصبر. فتحت الرسائل:

حروفٌ من أهلها في عمّان، محمّلة بحرارةٍ لم تكن تملك وقتاً لذرفها حين وصلتها. كتبت بسرعةٍ متمايلة على إيقاع الرجفة:

ـ «أنا في كراج على أطراف السليمانية... لا أعرف المكان تماماً. الرجل يقول نتحرّك فجراً. أحتاج طريقاً إلى الأردن... سأبعثُ الموقع إذا استطعت»

وبينما أصابعها تتلمّس الأزرار، لاح وجهٌ عزيز يطفو في خاطرها: أم أحمد... ذلك الصوت الذي شقّ صمتاً ثقيلاً في ليلةٍ سابقة وقال:

ـ «لن أتركِ وحدكِ.»

فتحت محادثاتها، كتبت:

ـ «أنا هنا... في المدينة التي حذّرتِني منها.

شك ان الرجل يساوم ظلي.

إن عرفتِ أحداً أميناً يوصلني إلى حدود الأردن حيث اهلي، فافعلي...

الليلة طويلة، وأنا لستُ إلّا أمّاً تخشى على طفلتيها.»

أرسلت الرسالة، ثم نزعت الشريحة وأخفتها في بطانة الحقيبة.

«إن عاد السائق وفي عينيه سؤالٌ لا أستطيع دفعه»،

همست لنفسها:

«فلن يجد لديّ ما يدعّمه للابتزاز»

الوقتُ يمشي ببطءٍ قطرةٍ على جدار. تعلّم الهاربون، في مدارس الظلام، أنّ الساعة لا تُقاس بالدقائق بل بتناوب الأصوات:

سيارةٌ دخلت ثم خرجت، بوّابةٌ صريرُها يتلو ركودها، أقدامٌ مرت من جوار الباب ثم ضاعت. في الداخل، كان البردُ يتسلّل مثل قطّةٍ لا تُصدر صوتاً. خلعت معطفها وغطّت الصغيرتين، ثم ضمّت كتفيها تحت حجابها كي تحفظ حرارةً تكفي لفجرٍ بعيد.

تذكّرت بيتها الأوّل، وجدارَ الطفولة حين كان اللعبُ مباحاً قبل أن يتكلّس. تذكّرت صوت أمّها يناديها من شرفةٍ تشبه صدر الوطن قبل أن يحتله القتلة. ثم عادت إلى حيث هي الان... إلى هذه العلبة المعدنية التي تكوّر فيها الزمن، وإلى قلبٍ يحفر بأظافره نافذةً نحو الصبر.

في غمرة الصمت، انفتح بابُ الذاكرة على وجه الزوج وأهله، وهم يسوقون اسمَ الشرف كالمطرقة:

«الشرفُ لا يُفاصل، والدمُ يُغسل بالدم.»

كانت ترتعش من تذكّر تلك الجلسات التي تُدار فيها حياتها كصفقةٍ فوق طاولةٍ ملوّثة بالحجج؛ يدٌ تمسك دفترَ العشيرة، وأخرى تلوّح بآياتٍ تُنتزع من سياقها، وفمٌ يقرع على طبلةِ الفتاوى القديمة. كلّ ذلك صار وراءها الآن، لكنّ صوتَ المطاردين لا يزال يركض في أذنيها. وضعت يدها على فمها

كي لا تسمع بكاءها. الأمهات حين يبكين وحيداتٍ، يخجلن من دموعهنّ أمام أطفالهنّ، فيحوّلنها إلى حكايات.

همست للصغيرتين بحكايةٍ مبتكَرة كي تناما:

ـ هناك طائرٌ صغير، كان له بيتٌ في شجرةٍ عالية. جاء ريحٌ شرّير، كسّر الأغصان. فطار الطائرُ ومعه فرخان... ظلّ يطير حتى وجد شجرةً أخرى. الطائر لا يخاف حين يحمل صغاره... الصغار هم جناحاه.

وهي تحكي، كانت تُقنع نفسها معهما بأنّ لها جناحين.

كلّما ارتعشت، ضغطت على كفّها مشبكَ الشعر المعدنيّ. تذكّرت أنّه يفتح قُفلاً صغيراً إن احتاجت ويمكنها استخدامه كأداة للدفاع. التفاصيل الصغيرة لا تصنع البطولة، لكنها تمنع الهزيمةَ من أن تكتمل.

مرّت ساعةٌ أو أكثر، لا فرق. طرقاتٌ خفيفةٌ على المعدن أفزعتها. انتصبت كمن يتهيّأ للذبح. ثمّ هدأت الطرقات وتلاشت. وضعت أذنها على الجدار، سمعت حفيفَ أكياس، وحواراً مقطّعاً بلهجةٍ غير مألوفة: «**يا ربّ...**» قالت وهي تشدّ الطفلتين إلى صدرها. كتبت رسالةً مقتضبة لأهلها:

ـ «إن لم أكتب عند الفجر...

اتصلي بأم أحمد. قولي لها: "الميزان"، وستفهم.»

كانت كلمة السرّ التي اتفقت عليها مع الجارة قبل أن تغادر بغداد؛ تفصيلٌ مشفّرٌ لم تنتبه من قبل إلى أهميّة وجوده.

في غفلةٍ من الخوف، غفَتْ دقائق. حين فتحت عينيها كان الضوء يزحف من نافذة السقف كخيطِ لبنٍ على وجه الليل. بردُ الفجر له طعمُ ماءٍ قديم، يعضّ العظامَ ببطء. عادت لتفقد الهاتف. رسالةٌ من أم أحمد:

ـ «اعطي السائقَ هذا الرقم، سيهاتفه رجلٌ في محطةٍ قريبة. لا تخرجي معه وحدكِ. ابقي حيث أنتِ حتى اكتب لكِ. الأردن أولى من أوروبا... والأمانُ أوّل الطريق.»

ابتسمت ابتسامةً صغيرة لا يشبهها سوى دعاءٍ تحقق. كتبت:

ـ «حسنٌ. أنا أنتظر.»

وقبل أن تُعيد الهاتف إلى الحقيبة، أبلغت أهلها:

ـ «ثمة بصيص من الامل. ابقوا على الدعاء.»

ثمّ أسندت جبينها إلى الجدار تستجلب ما تبقى من سكينة. الخوف لم يخرج من السيارة، لكنه تراجع خطوةً إلى الخلف، كذئبٍ يعرف أن في اليد حجراً. نظرت إلى ابنتيها، ورأت في وجهيهما سبباً يتقدّم على كلّ التبريرات:

«الحرّيّة ليست كلمات على لافتةٍ سياسية،

الحرّيّة هذا الصباحُ الذي يمكن أن يُفتح بلا خوف،

وهذا الحليبُ الذي يُشرب بلا كراهة،

وهذه المدرسةُ التي تدخلها البنات بلا وصمةٍ معلّقة على جباههنّ.»

حين ارتجّ القفلُ أخيراً، انقبض قلب عفراء كما لو كان يتهيّأ لاستقبال قدرٍ جديد. شدّت على معطفها، تتوسّل منه دفئاً واطمئناناً، واستعدّت لكلّ الاحتمالات التي قد تخبّئها عتبةُ الباب الحديدي. وحين انفتح، ظهر السائق أمامها، ملامحه مرهقة، لكن عينيه تخلو من الندم، كأنما اعتاد أن يرى الخوف في وجوه الآخرين فلا يحرّك فيه شيئاً. رمقها نظرةً سريعة، ثم قال بخشونةٍ تخالطها نبرةٌ عملية باردة:

ـ هيا... سنملأ الوقود. بعد ذلك... سنواصل إلى الأردن، ولكن ستدفعين ثلاثة أضعاف المبلغ.

سقطت الكلمات على صدرها كصخرةٍ هوت من جبل، لكنها تماسكت، كأنها تعلّمت أن الحياة في المنفى تبدأ من لحظةٍ كهذه، لحظة ابتزازٍ لا مهرب منه. ردّت بصوتٍ هادئٍ خالٍ من الجدال، فيه من الشكر ما يشبه الخوف:

ـ كما تريد... فقط خذنا إلى هناك.

لم تعد تثق به، ولا بغيره من الرجال الذين يبدّلون وجوههم بين قناعٍ وقناع، لكنها بدأت تثق بأسبابها الخاصة:

رقم هاتفٍ تحفظه في ذاكرتها كآية نجاة، صورة لطريقٍ مرسومة في ذهنها تتجه غرباً، وقلبٍ يتعلّم أن القوة ليست صرخة، بل أن تمضي خطوةً أخرى رغم الارتجاف.

في اللحظة نفسها، وصلتها رسالة قصيرة على هاتفها المخبّأ بين يديها المرتجفتين:

ـ «ستصلين بالسلامة. اكتبي لي حال وصولك.»

كان التوقيع باسم "أم أحمد"، جارتها الطيبة، المرأة التي كانت تطرق بابها أيام المحن بقدرٍ من الحنان يضاهي الأمومة. أدركت عفراء أن هذه الروح النقية لا تزال تحرسها من بعيد، وأنها على الأرجح هي من تواصلت مع السائق ليعيد النظر في وجهته. دمعت عيناها، لكنّها أخفت الهاتف في صدرها، كما لو كان تعويذة نجاة لا تريد للقدر أن ينتزعها منها.

تنفّست بعمق، حاولت أن تزرع في رئتيها شيئاً من الشجاعة كي لا تنهار أمام طفلتيها. فتحت باب السيارة، خرجت للحظةٍ قصيرة، أصلحت وضع البطانية فوق جسديهما الصغيرين، ثم أعادت أطرافها بعناية أمّ تعاند القسوة. نظرت إليهما، تغطيان وجهيهما ببراءة حالمة، وتساءلت في سرّها:

«كيف لطفلتين صغيرتين أن تدفعا ثمن خطايا عائلة تطارد أمهما كأنها مجرمة؟»

كانت الشوارع خارج الكراج مظلمة، يتسلل إليها ضوءٌ باهت من مصابيح متعبة، والهواء يختلط فيه برد الليل برائحة الزيت المحترق. بدت المدينة غريبة، كأنها فمٌ مفتوح يتهيأ لابتلاعها. وكل خطوة كانت تحسّها كسيرٍ فوق جمر المجهول، لكنها مضت، بحذر، تتشبّث بالحلم البعيد:

«أن تصل، فقط أن تصل، ثم تفكّر بعدها كيف ستبني حياة جديدة من رماد قديم.»

في أعماقها، كانت تعلم أنها لم تهرب وحدها من سطوة الطائفية، بل هربت من تاريخٍ أراد أن يجعل منها ظلاً لا يملك جسداً. كل خطوة على هذا الطريق كانت إعلاناً صغيراً ضدّ القيد، وصلاةً خفيّة بأن تكون حريتها ثمناً يليق بتضحياتها.

هكذا، في تلك اللحظة التي بدت صغيرة في ظاهرها، كانت عفراء تعبر من كونها ضحية مطاردة إلى امرأة تصنع قدرها بقدميها المرتجفتين، تكتب قصتها بالحذر والخوف، ولكن أيضاً ببصيصٍ لا ينطفئ من الرجاء.

كان الفجر قد استوى، والكراجُ يكشف ملامحه... بقعُ زيتٍ كخرائط سوداء، قطّتان تتشمّسان بحذر، عاملٌ يتثاءب، ومئذنةٌ بعيدةٌ تُخرج من حنجرتها الأذان الأوّل. ابتسمت.. وقالت في سرّها:

«كان الموتُ يعرف عنواني في الأمس، أمّا المجهول... فليس له عنوان. هذا حسن.»

ثمّ عادت لابنتيها في الصندوق، جلست بينهما، وكتبت في قلبها معاهدةً جديدة:

«لن أبيع نفسي ولا بناتي للخوف، ولن أسمح لاسم الطائفة أن يكون صكَّ ملكيةٍ لأجسادنا.

إن كان المجهولُ هو الثمن... فليكن.

لكنّي سأدفعه وأنا ممسكةٌ بأيديهما، لا مُساقَةٌ وحدي كنعجةٍ إلى الذبح.»

الفصل الخامس

خلع خاتم الطائفية

تحرّكت السيارة كأنها قُذفت في مجرى لا رجعة فيه، تبتعد شيئًا فشيئًا عن السليمانية، تاركة خلفها أزقةً مطرزة بالذكريات المبتورة، وساعات انطبعت في الذاكرة كأختامٍ من دمٍ ومرارة. الطريق الممتد نحو عمّان بدا خيطًا رفيعًا يُضفَر على مهل بين تضاريس جرداء، كأن الأرض نفسها تتنفس على إيقاع رحيلها. في ذلك الفضاء الموحش، لم تُطلق عفراء الزغاريد كما تفعل النساء في مواكب الفرح، لم تبكِ بصوتٍ عالٍ كما يليق بالمقهورات، ولم تُوزّع وعودًا كبيرة كما فعلت في أوقاتٍ سابقة حين كانت تواسي نفسها بكلماتٍ خاوية. كلّ ما فعلته أنّها

رفعت رأسها قليلًا، وملأت صدرها بأنفاسٍ ثقيلة كأنها تنتزع الهواء من بين أنياب القدر، ثم همست بصوتٍ يقطر من بين الشفاه المحترقة:

«لا موت اليوم...

لا قيد...

اليوم خطوة إلى الغد.»

كان الهمس أشبه بقرارٍ وجوديّ، أشبه بقَسمٍ تُلقنه لذاتها الممزقة. وفي تلك اللحظة شعرت أنّها لم تعد المرأة نفسها؛ ان ما مرّت به من إذلال وتهديد وامتحان قد أفرغ من قلبها كل خوفٍ قديم، وملأها بقوةٍ غير مألوفة. قوّة لا تقوم على النجاة وحدها، بل على التحدي والمواجهة. أحست أنّ الطائفية التي سحقَتها بقوانينها الجائرة لم تتركها كما كانت، بل دفعتها إلى أن تولد من جديد، امرأةً أكثر صلابة، وأكثر وعيًا بقيمة كرامتها، كمن خرج من النار لا ليحترق، بل ليصير جمرةً لا تنطفئ.

غير أنّ نفاذ بطارية هاتفها أزعجها، كأن هذا الجهاز الصغير آخر خيط يربطها بأهلها البعيدين وبالعالم الذي تهاوى خلفها. رفعت صوتها بثقةٍ غريبة على مسامع السائق، وقالت بلهجة آمرة لا تحتمل التردد:

ـ هل معك شاحن؟ ... وإن لم يكن، فأعرني هاتفك. أريد أن أتصل بأهلي قبل أن نصل إلى طريبيل بساعة... أخبرني حين نقترب.

التفت السائق إليها مذهولًا. كان يدرك أنه لا يجلس أمام المرأة الضعيفة المرتجفة التي التقاها قبل يومين. النبرة الحاسمة التي خرجت منها بدت كالسوط، لا كبوح خوفٍ مستسلم. أدرك أنّ شيئًا تغيّر في أعماقها، وأنها لم تعد تلك الأسيرة المنكسرة، بل امرأة تحفر لنفسها مكانًا جديدًا وسط ركام الهزيمة.

تردّد قليلًا قبل أن يسأل، محاولًا أن يستعيد زمام المبادرة:

ـ ومتى ستدفعين؟ السيارة تحتاج إلى وقود.

رفعت حاجبها، وفي عينيها بريقٌ صلب لم يعهده فيها من قبل، ثم قالت بنبرة واضحة لا تقبل المساومة:

ـ قلت لك سأدفع قبل الوصول بساعة نصف المبلغ، والباقي حين نصل. والآن... أنا بحاجة إلى هاتفك إن لم يكن لديك شاحن.

ابتلع السائق ريقه، وأجاب متصنّعًا اللين:

ـ طيب... حين نتوقف للاستراحة أعطيك الشاحن.

لكنها لم تترك له مجالًا للالتفاف، بل واصلت بإصرار:

ـ أنا أحتاجه الآن. أعطني الشاحن. الهاتف سيحتاج وقتًا طويلًا ليُشحن.

مدّ يده عبر الفجوة بينهما، ودفع بالشاحن نحوها. لحظتها، أحست عفراء كأنها عبرت جسرًا خفيًا بين زمنين:

«زمنٍ كانت فيه مرعوبة تتوسل النجاة، وزمنٍ جديد تستعيد فيه إرادتها المسلوبة.»

كان ذلك الشاحن الصغير أشبه بمفتاحٍ لبوابة أخرى، بابٍ يفتح على إدراكها أنها باتت قادرة على أن تمسك بخيوط حياتها من جديد.

مدّت يدها إلى حقيبتها الصغيرة، فأخرجتها من بين ركام أشيائها كما يُخرج المرء قلبه المرتجف ليرى ما تبقّى فيه من حياة. فتحتها بتأنٍ وعدّت النقود ورقةً ورقة، كمن يواجه مرآة قاسية تكشف حاجته بلا رحمة. الأرقام لم تكن كافية، لكنها لم ترتبك. كانت في عينيها نبرة عناد لا تعرف الاستسلام.

انزلقت أصابعها إلى معصميها. هناك، حيث تلمع الأساور التي التصقت بجسدها منذ زمن بعيد، أساور، ورثتها منذ حكاية كابوس زواجها. رفعتها نحو الضوء، فرأت في بريقها شيئًا أشبه بقطع نقدية تنقذ الغريق. لم تعد مجرّد زينة، بل صارت مفاتيح صغيرة لأبواب النجاة، كأنها أرصدة احتياطية تحفظها لحظة الشدّة.

لكن عينيها لم تلبثا أن استقرتا على **خاتم الزواج**. تفرّست فيه طويلاً، وكأنها تراه للمرة الأولى.

كان يلمع بخبثٍ مُتعمَد في إصبعها،

ذكّرها بما عانته،

يعلن عن قيدٍ ظلّ يطوّقها حتى في غفلتها.

ارتجف صدرها، واندفع الغضب إلى أطرافها.

مدت يدها بعزم، وانتزعت الخاتم بقوة، كمن يقتلع شوكة صَدئة طال انغراسها في اللحم. في لحظة الخلع تلك، أحسّت بأن الدم يجري أكثر حرية في عروقها.

رفعت الخاتم بين أصابعها. كان ثقيلاً رغم خفته، صامتًا لكنه يصرخ بكل ما اختزن من قهر.

فكرت أن تقذفه في أقرب سلة نفايات، أن تتخلّص منه كما تتخلّص من ذكرى موجعة. لكنها توقفت. حدقت فيه بتمعّن، ورأت فيه سلاحًا أكثر من كونه عبئًا، شيئًا يمكن أن ينقلب ضد من كبّلها حين يحين الوقت. ارتسمت على شفتيها ابتسامة قصيرة، لم تكن ابتسامة فرح بل مزيج من التحدي والاستهزاء.

لفّت الخاتم في منديل صغير، وأخفته في الحقيبة بجوار نقودها القليلة. ثم أطبقت عليها بإحكام، كمن يغلق بابًا على سرّ كبير.

في تلك اللحظة شعرت **بخفة لم تعرفها منذ زمن. كان الهواء من حولها أوسع، كأن الأفق قد تمدّد أمامها بلا حدود، وكتفيها أكثر انتصابًا.**

لم يعد الخاتم خاتمًا، ولا الأساور أساورًا. كل ما حولها تغيّر، لأنها تغيّرت.

خلعت في تلك اللحظة قيدها،

لا من إصبعها فحسب، بل من حياتها كلها.

وما تبقّى أمامها لم يكن طريقًا محفوفًا باليقين، بل طريقًا مفتوحًا، يكفي أن تمشيه بخفّة من تحرّر أخيرًا من ثقل قديم.

حين توقفت السيارة أمام أول محطة للوقود، لم تعد تلك المرأة التي تنزل خائفة مترددة. ترجّلت بخطى واثقة، وقفت أمام السائق وسلّمته المبلغ الذي وعدت به، ثم طلبت منه أن يجلب لهما طعامًا وماءً كافيًا للرحلة. نبرة صوتها لم تكن رجاءً، بل أمرًا هادئًا يخرج من قلب امرأة استردّت حقها في تقرير مصيرها. قبل أن يعود إلى مقعده، أعادت عليه بصرامة:

ـ أريد أن نصل قبل حلول المساء. ولا تنسَ أن تذكرني قبل ساعة من الوصول.

تأمّلها السائق لبرهة. لم يعرف كيف تغيّرت ملامحها في أيام قليلة. كانت بالأمس شبحًا لامرأة، والآن تراها شامخة رغم تعب السفر، يعلوها مس من كبرياء غريب. لكنه لم يُدرك أنّ تلك الكبرياء لم تولد من فراغ، بل من رحم المأساة، من أعوامٍ من القهر الطائفي الذي جرّدها من حقوقها كإنسانة. ذلك القهر الذي صادر منها طفولتها وحقها في الاختيار، ثم تركها تفرّ من مدينتها كالغريبة.

الطريق من جديد امتدّ أمامهما. الرمال تنزلق تحت عجلات السيارة، والسماء معلقة كقدرٍ لا يرحم. ومع ذلك، شعرت عفراء:

«أن كل ميل تقطعه، إنما يضيف إلى روحها ميلًا آخر من الصلابة.»

لم تعد تسافر هربًا فحسب، بل تسافر بحثًا عن ذاتها المفقودة، عن امرأة لم يسمح لها المجتمع الطائفي أن تكون كما هي.

كانت تعرف أنّ المسافة إلى طريبيل ليست مجرد أميالٍ جغرافية، بل مسافة بين عالمين:

«عالمٌ قهرها وقيّدها بالعرف والدم والاسم، وعالمٌ آخر قد يمنحها حق أن تكون امرأة كاملة، لا ظلًا لأحكام الآخرين.»

في عينيها لمعت دمعة صغيرة، لكنها لم تسقط. أمسكت بها في محجرها كما تُمسك بالسرّ. فقد أقسمت أن تبقى واقفة حتى

النهاية، أن تحمل جراحها كأوسمة، وألا تسمح مرة أخرى أن تُختزل في هوية مفروضة أو اسم مسلوب.

وفي أعماقها، تردّد صدى الهمس الأول:

«لا موت اليوم...

لا قيد...

اليوم خطوة إلى الغد.»

لقد ولدت من جديد، في طريقٍ محفوف بالريبة والخطر، لكنها هذه المرة لم تعد مجرد ضحية. صارت شاهدةً على الخراب، ومقاومةً لظلمه في آن. سيارةٌ تهتزّ على الإسفلت، وصحراء تمتد بلا حدود، وامرأة تكتب بعرقها ويقينها وبقايا أملها فصلاً جديدًا من وجودٍ لم يعد يشبه ما كان.

قال السائق بلهجةٍ مائلةٍ إلى الاحترام، كأنه يتحسّس صلابتها الجديدة:

ـ بقيت ساعة ونكون عند نقطة الحدود.

ثم التفت إلى الطريق واستقام صوته على هدوءٍ لا يخلو من حذر، كأن ما انكسر فيها من قبل قد التأم، وما عاد يصلح معه الابتزاز ولا رفع النبرة.

تفقّدت طفلتيها أولًا؛ رتّبت وضعهما في المقعد الضيّق، وسوّت شعرهما المليء بغبار الطريق، ومسحت وجهيهما بمنديلٍ مبلّل كمن يغسل عن روحه أثر ليلة طويلة. ناولتهما ما تبقّى من الطعام بحرص أمٍّ توزّع لقيمات على الجوع والرجاء، ثم جمعت ما حولها تستعد للنزول:

زجاجة ماء نصف ممتلئة، وشالٌ يُدفئ كتفًا صغيرة، وأوراقٌ تتأكّد من وجودها كل دقيقة، وحقيبةٌ تضمّ في قاعها **خاتمًا لفّته في منديلٍ كي لا يلمظ في وجهها قيدًا بعد الآن.**

كل حركةٍ كانت تقول:

«لقد نضجتِ تحت المطرقة، وخرجتِ أصلب ممّا كنتِ.»

كان هدير المحرّك يسري تحت المقاعد كنبضٍ رتيب، وخارج النافذة تمتدّ الطريق كخيطٍ طويلٍ من صبرٍ لا ينتهي، شاحناتٌ ثقيلة تمضي، وأعلام حدودٍ تلوّح من بعيد كوعودٍ قريبة. داخل المركبة، اختلط دفء الأنفاس برائحة وقودٍ قديم، وانكمش الوقت في صدرها ككرةٍ من قلقٍ حارّ. ومع ذلك، كانت في عينيها سكينةٌ لا تُشترى:

«سكينة امرأةٍ مرّت في النار فصارت تعرف درجاتها، وتعلم متى تقف ومتى تعبر.»

تفقدت هاتفها؛ كان كامل الشحن أخيرًا. رفعتُه بأصابيع ثابتة، كأنها ترفع بابًا إلى صوتٍ اشتاقت إليه. منذ أسابيع لم يكن

بينهما إلا رسائل قصيرة تتسرب من قلبها ما يكفي لتبقى واقفة. الآن جاء دور الصوت. ضغطت زرّ الاتصال، وارتفع في أذنها رنينٌ يفتح مسافة بين خوفٍ قديم وأملٍ يخطو على أطرافه. حين ردّت أمّها، لم تقل «**مرحبا**»؛ سبقتها غصّةٌ سالت في الأذن نحيبًا رقيقًا، فيه فرحٌ يلمع واعتذارٌ خجول يتعثّر بالحروف. كانت تسمع في ذاك النشيج كل البيوت التي أغلقت ابوابها عليها، وكل الأيدي التي دفعتها إلى مصيرٍ لم تختره، وكل ليلةٍ تشقّقت فيها طفولتها كصحنٍ من خزفٍ رخيص.

قالت، وصوتها متماسكٌ على رغبتها في النجاة:

ـ «يا أمّي، استعدّوا لاستقبالنا عند نقطة الحدود على الأراضي الأردنية، في طريبيل. البنات متعبات جدا، وأنا كذلك. لا نحتمل المزيد من المغامرات ولا الانتظار الطويل.»

لم تُطِل الشكوى؛ اختصرت حكايةً كاملة في جملةٍ قصيرة، كأنها تقطع حبلاً من استرسال الألم. سمعت أمّها تهتف باسمها بين بكاءٍ وحمدٍ لله، وتقول كلامًا يتعثّر بين:

ـ «سامحيني..

والحمد لله

والبيت بيتك.»

كان في نبرة الأمّ رجاءُ من يمدّ كفّه إلى ماءٍ بعيد، وفي نبرة الابنة عزيمةُ من تعلّمت أن ترتّب الطريق بيديها وإن امتلأ بالحفر.

أغمضت عينيها لحظة، وألصقت الهاتف بخدّها كأن فيه وجنة الأمّ الدافئة. شاركتها البكاء لا ضعفًا، بل اعترافًا بأن القلب حين ينجو يحتاج أن يغتسل بدمعه. ثم قالت بصوتٍ هادئٍ حاسم:

ـ «ادعي لنا يا أمّي... لم يبقَ إلا مشوارٌ- قصيرٌ نعم ـ لكنّه المشوار الذي لا بدّ أن نعبره.»

كان الدعاء هنا ليس طلبًا غيبيًّا فحسب، بل تواطؤًا بين قلبين على ألا يعود الماضي إلى افتراس ما بقي من الأيام.

أغلقت الخطّ، وأعادت الهاتف إلى حقيبتها. نظرت إلى طفلتيها؛ الكبُرى تحاول مقاومة النعاس لتبدو شجاعة، والصغرى تقبض على جزءٍ من شال أمّها كأنها تمسك العالم. ضمّتهما إليها بيدٍ، وبالأخرى شدّت الحقيبة إلى صدرها.

تذكّرت الخاتم الملفوف في قاعها:

«لم يعد شاهدًا على بيع الطفولة بل إيصالًا قديمًا يستحق التسديد.»

«الحدود»،

فكّرت

«ليست سلكًا شائكًا ونقطة تفتيشٍ فقط؛ إنها حدٌّ بين امرأةٍ صُنعت لها حياة وبين امرأةٍ ستَصنع حياتها.»

كانت الساعة تمشي فوق الطريق ببطءٍ محسوب، والسيارة تقطع المسافة كما يُستأنف نفسٌ بعد غوصٍ طويل. كل بضع دقائق، ينعطف السائق لينظر في المرآة، فتلمح منه اعترافًا صامتًا بقوةٍ لم يتوقعها فيها. لم تعد هي التي تُقاد، بل التي تختار أين تقف وأين تُكمل. لعلّ العالم لن يصفّق لانتصارٍ صغيرٍ كهذا، لكن قلبها يعرف أنه الانتصار الذي يُبنى عليه كل شيءٍ لاحقًا: أن تحمي طفلتين من مزيدٍ من المغامرة، وأن تضع حدًّا للانتظار الطويل.

لمّا لاحت أوّل شواخص الحدود من بعيد، شعرت بأن الهواء صار أخفّ، وأن خطّ الأفق يقترب حتى يمكن قياسه بالكفّ. قالت لابنتيها وهمستها تخرج واضحة:

ـ إقتربنا

التفتتا إليها، وفي عيونهما سؤالٌ يشرق. ابتسمت بعينين ابتكرتا الأمل من الرماد، وقالت لنفسها:

«أحتاج الآن إلى خطواتٍ قليلةٍ فقط... خطواتٍ بقدر قلبٍ تعلّم أن يمشي، ولو على الأرض الساخنة.»

في تلك الساعة الناقصة من الوصول، كانت المرأة التي خُدِشت بأكثر ممّا تحتمل قد صارت قادرةً على حمل نفسها ومن تحبّ. مأساةٌ ثقبتها السنين، نعم، لكنها نفذت منها إلى ضوءٍ آخر. وحين تهبط عند طريبيل، سيكون لكل دمعةٍ سالت معناها:

«ليست هزيمة، بل ماءٌ ضروريٌّ لغرسٍ قرّر أن يعيش. وإذا كان أمامها بعد ذلك طريقٌ جديد، فلأن الطريق هذه المرّة تمشيه امرأةٌ خرجت من المحنة أكبر من محنتها.»

حين بلغوا أوّل نقطة عبورٍ على الحدود العراقية، بدا الهواء أثقل من المعتاد، مزيجًا من غبارٍ عالقٍ وأصواتٍ متقطّعة لجنودٍ ينادون بعضهم بعضًا. توقفت السيارة، وعاد الصمت يتربّع على المقاعد الخلفية حيث تنكمش طفلتاها قربها كفرخي حمامٍ خائفين. أدار السائق رأسه إليها بابتسامة دافئة لم تعهدها من قبل، وقال بصوتٍ خفيض:

ـ أنا يمكنني أن أكمل الإجراءات إذا أعطيتني الجواز.

قبضت على أوراقها بيدٍ واثقة وأجابته وهي تحاول أن تُخفي ارتجاف قلبها:

ـ لا...

سأكون معك.

تأملها لحظة ثم قال:

ـ ممتاز. لكن أريدك أن تعرفي شيئًا:

أنا لن أتركك هنا، وسأرافقك حتى اجتياز نقطة التفتيش الأردنية القادمة. أريد أن أطمئن أن كل شيء مرّ بسلام.

كلماته لم تكن مجاملة عابرة؛ شعرت فيها بصدقٍ لم تعهده في رجالٍ كثيرين مرّوا بحياتها. شكرته بهدوء، وفتحت حقيبتها على عجل قبل أن تتجه صوب الحرس. قالت برجاءٍ فيه شيء من الحزم:

ـ انتظر... أرجوك.

مدّت يدها داخل الحقيبة، وأخرجت منديلًا أبيض يضمّ خاتم الزواج الذي نزعتْه من قبل في لحظة تمرّدٍ مؤلمة. تلك اللحظة كانت فاصلة في حياتها، أقرب إلى إعلان الطلاق الروحي قبل أن يكون واقعةً رسمية.

نزعت خاتمًا آخر ظلّ في إصبعها سنوات، خاتمًا من ذهب يعلوه حجر عقيقٍ أحمر كانت تؤمن أنّه يجلب لها الحظّ ويمنحها بعض التوازن وسط الفوضى. وضعت الخاتمين معًا في المنديل، لفّته بعنايةٍ تشبه عناية الأمّ بطفلها، ثم ناولت الحزمة الصغيرة إلى السائق قائلة بصوتٍ متماسك:

ـ أرجوك... أوصل هذه الأمانة إلى الخالة أم أحمد.

هي على علمٍ بها.

كتبتُ لها رسالة نصية، وسأتصل بها لاحقًا.

لم يرفع السائق رأسه مباشرةً. كان كمن يقرأ في عينيها كل ما لم يُقال، ثم أومأ بالإيجاب.

أضافت وهي تفتح أصابعها المرتجفة على معصمها:

ـ ليس عندي ما يغطي المبلغ المتبقّي... لكن أساوري هذه تكفي وزيادة.

حاولت أن تنزع اساورها الذهبية، تلك التي التصقت بمعصميها كقيودٍ براقة لسنوات، لكن السائق مدّ يده سريعًا يمنعها، وقال بصوتٍ فيه اعتذارٌ رجوليّ نادر:

ـ لا داعي يا أختي...

لا داعي أن تخلعي أساورك.

ليس ضروريًا، لقد دفعتِ ما يكفي.

دعينا نذهب لإكمال الإجراءات بسرعة، قبل أن يحلّ المغيب، لأعود أنا لاحقًا.

تجمدت لحظة وهي تنظر إليه بدهشة. لم تتوقع أن يقابل عرضها برفضٍ كهذا.

كان في صوته احترام لم تسمعه منذ زمن بعيد، كأنّه أدرك أنّ المرأة التي بجواره لم تعد تلك الضحية المكسورة، بل صارت امرأة نضجت من رماد محنتها، امرأة عرفت كيف تحمي نفسها وطفلتيها حتى النهاية. لقد فرضت عليه احترامها بصلابتها، لا بتوسّلها.

اتجهت برفقته نحو نقطة الحرس والتفتيش الاخيرة. ارتفعت أصوات العساكر، رائحة العرق ممزوجة بالغبار والحديد، وجوه متعبة تتبادل الأوامر والشكوك. سلّمت أوراقها، وتابعت خطواتها بثباتٍ غريب. لم تكن تشبه نفسها القديمة التي كانت ترتعش من فكرة المواجهة. الآن تسير وكأنها عبرت النهر، ولم يتبقَّ إلا أن تجفّف ثيابها.

اكتملت الإجراءات أخيرًا. وقفت إلى جانبه، تصافحا مودّعين، فشدّ على يدها وقال بصدقٍ جليّ:

ـ سلامة الوصول.

وسأوصل الأمانة إلى أم أحمد كما طلبتِ.

شكرته بعينين دامعتين، ثم استندت إلى جدارٍ إسمنتيّ قرب النقطة تنتظر سيارة أخيها التي ستقلّها إلى ما بعد الحدود، الى عمان.

كان الغروب يرسم السماء بألوانٍ برتقالية داكنة، كأن الشمس نفسها تستعد لعبورٍ آخر.

أخرجت هاتفها وأرسلت رسالة سريعة إلى أم أحمد:

ـ أشكرك من القلب...

سلّمي خاتم الزواج إلى حيدر الجلاد، أخو زوجي، ليعرف أنني طلّقتهم جميعًا دون رجعة.

أمّا خاتم العقيق، فهو هدية صغيرة، من ابنتك عفراء... لتتذكريني بها.

اعاهدكِ لن انساك ما بقي فيّ نفسٌ، حتى الرمق الأخير من عمري.

انزلقت الكلمات من أصابعها كدموعٍ مكتوبة.

لم تكن مجرّد رسالة، بل كانت بيانًا واضحًا... إعلانًا رمزيًا أنها خرجت من الطوق الذي كبّل حياتها باسم الطائفة... باسم الأعراف... باسم "الشرف" الذي كان غطاءً لذلٍّ طويل.

هي الآن تقف على الحدود لا لتجتاز جغرافيا فحسب، بل لتكسر جدارًا أُقيم حولها منذ الطفولة، جدارًا من المحرّمات والتهديدات والوصايا التي لم تكن سوى أسوارٍ لسجنٍ طويل.

أغمضت عينيها لحظة. رأت طفولتها تُساق بالعصا نحو مصيرٍ لم يختره قلبها، رأت زواجها يُعقد كصفقةٍ في سوقٍ مزدحم، رأت لياليها تُسرق منها تحت ظلال الطائفة وقوانينها التي لا

تعرف الرحمة. ثم فتحت عينيها على صورة طفلتيها الملتصقتين بكتفها، فابتسمت. ابتسامة امرأة تعرف أنّها دفعت الثمن كاملاً كي تمنحهما حريةً لم تعرفها هي.

كانت الحدود أمامها، والليل يقترب بخطاه الثقيلة. لكنها لم تعد تخاف. ثمة نارٌ داخلها تحوّلت إلى نور، وثمة دموعٌ ذُرفت حتى آخرها ولم يبقَ منها سوى لؤلؤة صلبة تلمع في عينين متعبتين. وحين سمعت بوق سيارة اخيها يقترب، أدركت أنّ الطريق الذي ستمشيه بعد الآن لن يكون طريق امرأةٍ تُساق، بل طريق امرأةٍ اختارت أن تمشيه بقدميها، مهما كان شائكًا.

مدت بصرها إلى الافق المائل إلى حُمرة الغروب، وقالت في سرّها:

«لقد طلّقتكم جميعًا...

لا قبيلة

لا طائفة

لا قانون

يمكن أن يعيدني إلى الوراء.»

وحين انطلقت السيارة تقلّها نحو الجانب الأردني، كانت تعرف أنّ مأساة المرأة الضحية لا تنتهي هنا، لكنها أيضًا لا تبدأ من جديد.

لقد كتبت بيدها خاتمة فصلٍ قديم، وفتحت على آخر صفحةٍ من حياتها:

امرأة نجت من قفصٍ صنعته الطائفة واعرافها، لتكتب مستقبلها بنفسها، حرّة، ولو جُرحت ألف مرة.

الفصل السادس

الحلم بأمان الاستقرار

منذ أن استقرّت بها الحال في بيت أهلها بعمّان، شعرت بشيءٍ من الهدوء الذي افتقدته طويلًا، لكنه كان هدوءً هشًّا، كستارٍ من دخان يمكن أن يتمزّق بنفحة ريح.

مضى أسبوع كامل وهي تتأمل الجدران التي تحيطها الآن، تحاول إقناع نفسها أن هذا البيت ليس سوى ملاذًا، لكنه لا يزال يعجّ بالقلق، إذ كانت تدرك أن المدينة ليست لها وحدها، وأن شوارع عمّان تفيض بالعراقيين، بعضهم لا يعرفونها،

وبعضهم قد يعرفونها ويحملون في صدورهم حقدًا ثأريًا يسعى وراءها.

كانت تعرف أنّ عيون أهل زوجها قادرة على التمدّد لتطاردها أينما حلّت، كظلٍّ لا يكلّ ولا يملّ.

كل ليلة كانت تنام وفي قلبها سؤال:

«هل ستطرق، أيادٍ غريبة، الأبواب فجأة؟

هل سيسحب الأمان من تحت قدميها مرة أخرى كما حدث مرات عديدة من قبل؟»

كان الخوف يسكنها، لكنه لم يعد خوف المرأة المستسلمة، بل خوف الأم التي تريد أن تصون مستقبل طفلتيها حتى لو دفعت من عمرها، ثمنًا لما تبقّى.

في تلك الأيام، سمعت من أمها أنّ العائلة تعتزم الرحيل إلى تركيا، حيث يقيم عمّها، الرجل الذي كان لهم سندًا بعد وفاة والدها. عمّها ذاك الذي لطالما مثّل لهم الأب الغائب، الحامي الذي يمدّ يده ساعة العوز.

وجدت في الخطة بصيص رجاء، فتركيا أقرب إلى برّ أمانٍ من هذا المجهول الذي يتربّص بهم في عمّان. رحّبت بالفكرة بصمتٍ مطمئن، لكنها في أعماقها عرفت أنّ هذا ليس ما تبحث عنه تمامًا.

كانت تخرج من غرفتها أحيانًا لتتجوّل في أرجاء البيت، ثم تعود سريعًا، كأنها تخشى أن تراها عيونٌ تتربّص بها من نافذة مجهولة. آثرت أن تقلّل من ظهورها في الخارج، وأن تختبئ عن أنظار المدينة، تنتظر بصبرٍ متوتّر موعد الرحيل. لكن شيئًا في قلبها كان يتمرّد:

ما قيمة الرحيل إن كان سيؤجّل المواجهة ولا ينهيها؟

جلست مع أمها ذات مساء، والليل يمدّ ستائره السوداء على المدينة، وقالت بصدقٍ ممزوج بجرحٍ قديم:

ـ أمّي، أريد أمانًا آخر... أمانًا حقيقيًا.

أريد استقرارًا أبني به مستقبلًا لي ولطفلتيّ.

من تركيا... أفكّر في أن أطلب اللجوء إلى أوروبا."

توقفت الأمّ عن عملها، حدّقت طويلًا في وجه ابنتها. رأت في ملامحها صورة طفلة سُرقت منها طفولتها، وزُوّجت كما تُباع الأشياء في أسواق الخردة. رأت فيها امرأة ضعيفة دفعت ثمن قوانينٍ لم تكتبها هي، لكنها نهضت أخيرًا لتكتب سطرها الأول بيدها.

في تلك اللحظة دخل أخوها الأصغر، شاب في مقتبل عمره، لكن عينيه كانتا تحملان من التعب ما يكفي لعمرٍ مضاعف. قال بلهجة حاسمة:

ـ وأنا أيضًا... أنوي طلب اللجوء في اوروبا. لن نفترق هذه المرّة.

كلماته جاءت كحجرٍ ألقي في ماءٍ راكد. التفتت إليه بعينين دامعتين، لم تتوقع منه هذا العزم. لقد كان هو أيضًا ضحية الطائفة، التي فرّقت بينهم مرارًا، وزجّت بهم في دروبٍ من الفقد والضياع. الآن يقول لها:

سنمشي معًا. لم تكن مجرّد كلمات أخ، بل عهد جديد بين جيلين مهشّمين.

ابتسمت الأمّ لأول مرة منذ أيام، وفي ابتسامتها ظلّ من حزنٍ قديم، لكنها بدت كمن يستجمع قوّة غير متوقعة. قالت بصوتٍ هادئ لكنه مشبع بالإصرار:

ـ سأساعدكما بكل ما أستطيع. لقد بعتُ محل والدكما والبيت، ولن أدّخر شيئًا. أنتما مستقبلي... وأريد أن أراكم تبنون حياةً جديدة بعيدًا عن هذا الخراب.

كان كلامها موجعًا كأنه اعتراف، لكنه حمل في داخله بذرة خلاص. باعوا بيت الذكريات ليشتروا حياةً جديدة، تنازلوا عن الماضي ليعبروا إلى الغد.

في ليالي عمّان التالية، جلست عفراء على سطح البيت، تتأمل أضواء المدينة الممتدة حتى تخوم الجبال. كانت تفكر في ماضيها:

كيف تحوّلت من طفلةٍ تُباع في صفقةٍ طائفية إلى امرأةٍ تحلم بأن تمنح ابنتيها وطنًا يليق بالإنسان.

كان الماضي ينهشها، لكنه لم يعد قادرًا على ابتلاعها.

تساءلت في سرّها:

كم من النساء مثلي ينتظرن؟

كم من طفلةٍ أخرى تُساق اليوم باسم الدين والطائفة لتتزوج جلادها؟

وهل يكفي أن أهرب أنا وحدي؟

لكنها سرعان ما عادت إلى الواقع:

يكفي أن أنقذ طفلتيّ.

يكفي أن أبني لهنّ حصنًا بعيدًا عن أنياب ومخالب الطوائف.

كانت تتوق إلى لحظة تعبر فيها حدود تركيا، لتتقدم بعدها بطلب لجوء إلى بلدٍ أوروبي. لم تكن تحلم بثراء ولا جاه، بل ببيت صغير، ومدرسة تفتح أبوابها أمام ابنتيها، ومستقبل يُبنى بلا خوف من طلقات ثأر أو فتاوى تبيح القتل باسم الطائفة.

في قلبها كان هناك جرح لا يندمل، لكنه صار وقودًا لعزمٍ جديد. لم تعد تلك المرأة التي استسلمت لقدرٍ جائر. هي الآن امرأة

عرفت أنّ الضعف ليس نهاية، بل بداية لقوةٍ حقيقية. قوة تبنى على الإدراك بأن الكرامة لا تُعطى بل تُنتزع.

في تلك الأيام القليلة قبل الرحيل، بدت عمّان لها مدينة عبور، محطة في طريق أطول. لم تعد تراها غاية، بل جسرًا. وكل جسر، مهما كان هشًّا، يقود إلى الضفة الأخرى. والضفة التي حلمت بها لم تكن سوى أوروبا البعيدة، حيث تستعيد إنسانيتها الضائعة.

وعندما جاء المساء الأخير قبل السفر، جلست بين أمها وأخيها وطفلتيها، وقالت بصوتٍ خافت لكنه نافذ كالسهم:

ـ هذه ليست نهاية، إنها البداية.

من هنا سنمضي،

لا لننجو فقط، بل لنعيش حياةً كاملة لا نصف حياة."

رفعت الأم يدها بالدعاء، وأجابها الأخ بعينين تشعّان تصميمًا، فيما طفلتان صغيرتان انكمشتا في حضنها، كأنهما تذوقان للمرة الأولى طعم الأمان الحقيقي.

وحين أغمضت عينيها تلك الليلة، على عتبة الرحيل، لم تشعر أنّها مجرّد ضحية من ضحايا القدر، **بل امرأة اجتازت جحيمًا لا يطاق، لتقف الآن أمام الجنّة المحتملة. لم تكن جنّة من وعودٍ معلّبة أو عطايا متساقطة من يد الآخرين، بل جنّة**

تصنعها بيديها، وتبنيها لبنتيها لبنةً لبنة، حريةً تفتتحها بدموعها أولًا، ثم بصلابتها وإصرارها.

كانت الأفكار تتناوب على قلبها كالأمواج:

رهبة الطريق المجهول،

خوف من أن تتيه وسط غربةٍ لا تعرفها، وهواجس عن المخاطر التي قد تحيط بها وبطفلتيها.

لكنها، وسط هذا الزحام من الأسئلة، شعرت:

بأنّ الخوف لم يعد سيد الموقف. كان الإصرار، تلك النار الهادئة التي توقدت في أعماقها، أقوى من كل شيء.

لقد عاشت ما يكفي من الطائفية التي خنقتها، وما عادت قادرة على احتمال أن تُساق طفلتان بريئتان في دوّامة الدم والتمييز. **كانت تعلم أنّ كل خطوة تحمل مغامرة، لكنّها، في عمق وجدانها، أيقنت أنّ المخاطرة لأجل الحياة أكرم من البقاء في موتٍ مؤجّل.**

هي لم تعد ترى نفسها امرأة تُقاد بالعواصف، بل ربّانة تجرؤ على الإمساك بدفّة السفينة وسط بحرٍ هائج. ومنذ اللحظة التي قررت فيها أن تحمل طفلتَيها وتعبر بهما الحدود، تغيّرت صورتها في عيني نفسها:

من امرأة جريحة إلى أمّ مقاتلة،

من شاهدة على الخراب إلى خالقة لفرصةٍ جديدة.

كان قلبها يردد:

قدري أن أحميكما، حتى لو اضطررت أن أفتت صخراً بأظافري.

ما أرعبها بالأمس صار الآن حافزًا على الانطلاق.

فالطائفية لم تترك لها سوى خيارين:

الاستسلام لليلٍ لا آخر له،

أو التمسك بشعاعٍ بعيد يلمع في آخر الأفق.

اختارت أن تجري خلف الضوء، مهما كان بعيدًا، لأنّها أدركت أنّ الطفولة لا يجب أن تُدفن تحت ركام الكراهية، وأنّ الحبّ الذي تحمله لطفلتيها أثمن من كل مخاوفها.

ولمّا وضعت رأسها على الوسادة، بين لحظة الأرق ولحظة الحلم، عرفت أنّ الرحلة المقبلة لن تكون يسيرة. لكنّها استشعرت أنّ في داخلها قوّة أعمق من الجراح، وأوسع من حدود وطنٍ ضاق بها.

كانت تبحث عن مساحة تتنفّس فيها إنسانيتها كاملة، من دون قيود ولا أقنعة.

أرادت أن تكبر طفلتاها في فضاء لا يسألهما أحد عن طائفتهما، بل عن أحلامهما.

هناك، في صمت الليل، انهمرت دمعة على خدّها، لم تكن دمعة ضعف بل دمعة ولادة جديدة. لقد أيقنت أنّها، برغم كل ما خسرته، ربحت نفسها من جديد. خرجت من قلب العاصفة أكثر صلابة، وأكثر إيمانًا بأنّ **الطريق الذي يوجع هو نفسه الطريق الذي يفضي إلى الخلاص.**

وهكذا، قبل أن يغلبها النوم، رأت في داخلها صورةً لمستقبل لم يحن بعد**:**

طفلتان تركضان في ساحةٍ خضراء،

أصوات ضحكاتهما تملأ الفضاء،

وجهها يضيء بابتسامة امرأة عرفت أنّها لم تهرب من الموت فحسب، بل ذهبت لتصنع للحياة معنى أبهى.

لقد أغمضت عينيها، لا لتغرق في نومٍ عابر، بل لتودّع زمنًا ملوّثًا بالظلم، وتستقبل فجرًا تصنعه بجرأتها. كانت تعلم أنّ الرحلة إلى الحرية محفوفة بالمخاطر، لكنّها، في أعماقها:

كانت واثقة بأنّها بدأت للتو كتابة الصفحة الأجمل في حكايتها.

**

انتهت

الكاتبة في سطور

وُلدت في مدينة النجف، ونشأت في بغداد، حيث تفتّحت عيناها على نبض الفن والفكر.

بدأت مسيرتها العلمية بدراسة الأرشفة والصحافة؛ مسكونة بالشغف للكلمة وتوثيق الحقيقة، غير أن الظروف السياسية العاصفة أواخر السبعينات أرغمتها على مغادرة العراق، فكانت الهجرة قدرًا فرضته المبادئ.

لم توقفها المنافي، بل كانت منطلقًا جديدًا لمسيرة حياتها؛ فحصلت على درجة الماجستير في الاقتصاد السياسي من بلغاريا، وواصلت رسالتها المعرفية بالتدريس في جنوب اليمن ثم ألمانيا.

في موازاة ذلك، خاضت غمار الإبداع العملي والفني، فتخصّصت في فن التصميم والخياطة، وعملت بهما في عدة دول، لتكون ألمانيا محطتها الأخيرة في هذا المجال تاركة بصمتها الخاصة

تنوعت خبراتها في ألمانيا بين الترجمة والعمل وفي المجالات الاجتماعية والتربوية.

احبت الادب وشغفت به منذ نعومة اظفارها. لها مساهمات أدبية ونقدية. نُشرت وتنشر في عدد من الصحف والمواقع الإلكترونية.

** صدر لها:

* رواية بعنوان بين غربتين، الجزء الأول، نيسان/ ابريل 2025 ــ دار آريس/

* صدر لها "الرجل الذي سبق الثورة/ الجوانب الإنسانية في سيرة سلام عادل ـ أيلول/ سبتمبر 2025 ــ دار آريس/ المانيا.

** لها تحت الطبع

*رواية الحرز

*مجموعة قصصية بعنوان" النخلة العمةـ وابناءها الاشقياء،
* مقالات وبحوث نقدية.

الفهرست

الصفحة	الفصل	العنوان
1	الاول	عفراء في مهبّ الطائفية
13	الثاني	خيط في العتمة
25	الثالث	فُلك النجاةِ إلى المجهول
32	الرابع	ليلةٌ على حافّة المجهول
45	الخامس	العبور الأخير
64	السادس	الحلم بأمان الاستقرار